

الإسلام وإشكاليات الحداثة

محاضرات

سماحة السيّد صدر الدين القبانچي

إعداد

السيّد حيدر السيّد رجب السويج

الجامعة الإسلاميّة

النجف الأشرف

إصدار وحدة الدراسات والبحوث (١٩)

الإسلام وإشكاليات الحداثة

السيّد صدر الدين القبانچي

إعداد: السيّد حيدر السيّد رجب السويج

الجامعة الإسلاميّة/ النجف الأشرف

إصدار وحدة الدراسات والبحوث (١٩)

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ

العدد: ٣٠٠٠ نسخة

النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلّف:

الحمد لله وصلّى الله على محمّد وآله.

وبعد فقد اطّلعت على ما كتبه ولدنا وتلميذنا العزيز السيّد حيدر السيّد رجب تقريراً لمحاضراتنا في الدراسة المقارنة بين الحداثة والإسلام والتي قدّمناها في الجامعة الإسلاميّة في النجف الأشرف.

والحقيقة أنّ هذه المحاضرات لم تكن معدّة للإصدار والطباعة، كما لم تكن نهائية، وحاولنا أن نلاحظ فيها مستوى الطالب الجامعي في هذه المرحلة، كما اعتمدنا فيها أسلوب التدريس وليس أسلوب الكتاب.

ومهما يكن فإنّ جهود المقرِّر لهذه المحاضرات قد جاءت كبيرة وأستطيع أن أقول عنها أنّها دقيقة، وقد شجّعني ذلك على مطالعتها وإعادة النظر فيها وإجراء بعض التعديلات عليها لتكون صالحة للنشر.

أعتقد أنّ **هذه البحوث تمثّل خطوة أولى في مشروع دراستنا المقارنة للفكر الحداثي والإسلام والذي نعمل على إنجازه** بإذن الله تعالى وتوفيقه **وبصورة أكثر شمولية ودقّة في كتابنا (نقد الحداثة الفلسفية)** وإنّي أحيل القارئ للمزيد من الاطلاع على ذلك الكتاب الذي ما يزال قيد الإعداد.

ولا بدَّ لي هنا أن أتقدَّم بكلمة شكر وتقدير للأساتذة الكرام في الجامعة الإسلاميّة الذين وفَّروا لي فرصة تقديم هذه المحاضرات في

أجـواء علميــة ولأبنائنــا الطلبــة الأعــزّاء، وكلمــة شــكر لولــدنا العزيــز الــسيّد حيدر رجب على جهده المكثَّف في جمع وإعداد هذه المحاضرات.

وإنِّـي لأرجـو أن أكـون قـد وفِّقـت لتقـديم مـساهمة فـي الـدفاع عـن الفكـر الإسـلامي وعرضـه بالـصورة القـادرة على مواجهـة الأفكـار والـشبهات الحداثية الجديدة، أسأل الله تعالى القبول والتوفيق.

السيّد صدر الدين القبانچي
١٨/ محرَّم الحرام/ ١٤٣٠هـ
النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطالب:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد المصطفى وآل بيته النجباء.

وبعد..

هذا الكتاب الفكري هو عبارة عن محاضرات ألّقاها سماحة الأستاذ السيّد صدر الدين القبانچي أستاذ مادة الفكر المقارن سنة (٢٠٠٧م) لطلاّب المرحلة الأولى والثانية، وكنتُ ممَّن تشرَّف بحضور هذا الدرس المبارك في الجامعة الإسلاميّة.

طرح السيّد نظرية الحداثة بالمفهوم العصري مقابل نظرية الإسلام. فالإسلام يؤمن ببعض هذه النظريات... بعض النظريات العصرية تتَّفق مع الشرع وبعضها مخالفة للشرع. وقد حاول السيّد الأستاذ الجمع بين وجهات النظر الإسلاميّة والحداثة وطرحها بأسلوب علمي دقيق واعتبر أنَّ الحداثة تعتمد على المبادئ الثلاثة: مبدأ الذاتية، ومبدأ العقلانية، ومبدأ العدمية، وناقش كلّ مبدأ من هذه المبادئ وقدَّم أدلّة على كلّ مبدأ ثمّ قام بنقده من وجهة نظر إسلاميّة.

وقمت بتقرير كلّ ما ذكره السيّد خلال المحاضرة مع استبدال بعض الألفاظ وإضافة بعض الملاحظات وبعض الشواهد القرآنية، كما قمت باستخراج المصادر، والتعليق ببعض الهوامش المهمّة.

فعندما قرأ هذا التقرير أحد أساتذتي في الحوزة العلمية طلب منّي أن أطبع هذه المحاضرات ليستفاد منها بعض المؤمنين فكتبت هذه التقارير والإضافات على هيأة كتاب وأنا كلّي أمل أن يكون كتاباً ينتفع به المؤمنون وأن يدعوا لي بالتوفيق والسداد من الله تبارك وتعالى إنَّه سميع الدعاء قاضي الحاجات. وأسأله أن يلهمني علماً أنتفع به وأنفع به غيري لنصرة سيّدي ومولاي وعمدي ورجائي صاحب الأمر الإمام المهدي المنتظر C .

والحمدُ لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

الطالب

السيّد حيدر السيّد رجب السويج

٥/ ٩/ ٢٠٠٧م

الفصل الأوّل:

الحداثة

النشأة والتعريف

نشأة الحداثة:

مهما يكن القول في نشأة الحداثة و تاريخ ظهورها في الفكر الإنساني حيث اختلف كتّاب (الحداثة) في ذلك.

فقد أرجعها المفكّر الأمريكي (ريتشارد رورتي) إلى القرن السادس عشر و السابع عشر الميلادي بينما أرجعها المفكر الألماني (يورغن هابرماس)[1] إلى عصر الأنوار (القرن الثامن عشر الميلادي) في

---

(١) يورغن هابرماس: يعتبر أكبر فيلسوف ألماني معاصر وربَّما أكبر فيلسوف في أوربا والغرب كلّه. ولد في ألمانيا عام (١٩٢٩م). حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة مبكراً عام (١٩٥٤م) حيث حضر أطروحة عن شيلنغ وكان عمره (٢٥) عاماً فقط. عيّن مدرّساً في جامعة هايدلبرغ من عام (١٩٦١م) إلى (١٩٦٤م)، ومدرّساً في جامعة فرانكفورت بين عامي (١٩٦٤ - ١٩٧١م). وأصبح مديراً بمعهد ماكس بلانك الشهير في ميونخ بين عامي (١٩٧١ - ١٩٨٣م). ثمّ عاد من جديد للتدريس في جامعة فرانكفورت بين عامي (١٩٨٣ - ١٩٩٤م) بعدها تقاعد.
كان هابرماس عالم اجتماع في البداية قبل أن يصبح فيلسوفاً، وبما أنَّ ألمانيا كانت محافظة ومعادية لليسار والشيوعية فإنَّه راح يستفزُّهم ويقدّم نفسه على أساس أنَّه مفكّر ماركسي ولكنَّه في الواقع كان أقرب إلى ماكس فيبر من ماركس نفسه. ثمّ راح هابرماس يدرّس الرأسمالية في مجتمع متقدّم كالمجتمع الألماني.
نشر هابرماس كتابه عن النظرية والممارسة عام (١٩٦٣م) وفيه وضَّح العلاقة الكائنة بين النظرية والتطبيق. وفي عام (١٩٦٨م) نشر كتاباً مهمّاً تحت عنوان (المعرفة والمصلحة) وكشف فيه لأوّل مرّة عدم وجود علاقة بين المعرفة العلمية والمعرفة التكنولوجية من جهة، وبين مصلحة الطبقة البرجوازية أو الرأسمالية السائدة من جهة أخرى. ثمّ أكمل هذا الكتاب بكتاب آخر صدر في العام نفسه تحت عنوان (التكنولوجيا والعلم بوصفهما إيديولوجياً وهنا أيضاً كشف عن الطابع الإيديولوجي أو النفعي أو المصلحي للعلم والتكنولوجيا في المحيطات الأوربية المتقدّمة. \

]

ثمّ عمَّق أفكاره عن طريق نشر الكتاب التالي (العقل والمشروعية: مشاكل المشروعية في المجتمعات الرأسمالية المتقدّمة). معلوم أنَّ المشروعية في القرون الوسطى الإقطاعية كانت قائمة على الدين المسيحي، لكنَّها بعد الثورة الفرنسية ووصول البرجوازية إلى الحكم والتقدّم الهائل الذي حصل في مجال العلم والتكنولوجيا أصبحت قائمة على العقل الفلسفي أو العلمي وهنا يكمن فرق كبير بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات المتقدّمة أو مجتمعات ما قبل الحداثة ومجتمعات الحداثة إن لم يكن ما بعد الحداثة. ولكن هنا أيضاً نلاحظ أنَّ الرأسمالية تستطيع استخدام العقل العلمي والفلسفي لصالحها وبالتالي فهناك ملابسات سلطوية أو مصلحية للعقل مثلما كانت هناك ملابسات سلطوية للدين.

ثمّ في سنة (١٩٧٦م) نشر هابرماس كتاباً بعنوان (ما بعد ماركس) وفيه أوضح الفرق بين ماركس الحيّ وماركس الميّت، أو بالأحرى ما مات من فكر ماركس وما لا يزال حيّاً.

بعدئذٍ أصدر كتاباً ممتعاً تحدَّث فيه عن كبار فلاسفة الماضي من أمثال أدورنو وهيدجر ونيتشه وساهم وكان بعنوان (شخصيات فلسفية وسياسية). وأصدر في عام (١٩٨١م) كتابه الشهير (نظرية الممارسة التواصلية) وفيه قدَّم أرقى نظرية ديمقراطية وعقلانية للمجتمعات الحديثة. وقال: إنَّ عقل التنوير لم يمت على عكس ما توهَّم أستاذه أدورنو وكذلك يوركهايمر. لا ريب في أنَّه يحقّ لنا أن ننتقد وبشدّة الانحرافات التي تعرَّض لها عقل التنوير في عصر الاستعمار والحربين العالميتين على يد الفاشية الأوربية، ولكن لا يحقّ لنا أن نرمي بكلّ مكتسباته التي صنعت الحضارة الحديثة في مزبلة التاريخ.

ثمّ نشر هابرماس بعدئذٍ كتاباً ضخماً ومهمّاً بعنوان (الخطاب الفلسفي للحداثة) وهاجم فيه بشدّة فلاسفة ما بعد الحداثة وخاصّة الفلاسفة الفرنسيين من أمثال جان فرانسوا ليوتار وميشيل فوكو وجاك دريدا، واتَّهمهم بالسقوط في شباك النزعة النيتشوية اللاعقلانية. وقال هابرماس ما معناه: إذا كانوا يعتقدون أنَّ فكر ما بعد الحداثة سوف يكون مضادّاً للحداثة أو تدميراً لها فإنَّنا نرفضه. فما بعد الحداثة ينبغي أن يكون استمراراً للحداثة لا انقلاباً عليها وعلى منجزاتها الرائعة التي لا تقدّر بثمن. وأهمّ هذه المنجزات هي: حرّية الوعي والضمير، وحرّية الاعتقاد، وحرّية الصحافة والتعبير والنشر، وحرّية الاجتماعات والتنقّل، هذا بالإضافة إلى بقيّة الحرّيات السياسية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وبالتالي فإنَّ معاداة الحداثة تعني العودة إلى الوراء: أي إلى ما قبل الحداثة ، إلى عصور الإقطاع والأصولية الدينية والتعصُّب الأعمى والاستبداد السياسي... \

حين حدَّد الباحث الأمريكي (فريد ريك جيمسون) تاريخ نشوءها بالنصف الأوّل من القرن العشرين [1].

لكنَّنا نعتقد أنَّ الحداثة بوصفها (نظرية فلسفية) _ كما سنشرح _ تكاملت وتنامت ونسجت خيوطها طوال هذه الفترة كلّها، حتَّى تبلورت في النصف الأوّل من القرن العشرين باعتبارها مشروعاً فكرياً، ومدرسةً فلسفية تمتلك رؤية متكاملة عن الكون والإنسان، في حين كانت البداية لا تمثّل أكثر من انطلاقة فكرية وتجاوز للخرافة هنا وهناك،

]

وهذا ما لا تريده المجتمعات الأوربية بأيّ شكل كان، وبالتالي فإنَّ هؤلاء الفلاسفة الذين يدَّعون أنَّهم تقدّميون هم في الواقع من المحافظين الجدد الحاقدين على الحداثة والتنوير.

وطرح هابرماس عندئذٍ الشعار التالي: نريد التنوير كلّ التنوير ولا شيء غير التنوير، ولكن منقَّحاً ومصحَّحاً ومراجعاً على ضوء تجربة القرنين الماضيين.

على هذا النحو اندلعت معركة فلسفية كبرى بين هابرماس من جهة، وفلاسفة فرنسا من جهة أخرى. بل ولامهم لأنَّهم لا يأخذون من التراث الألماني إلاَّ الفكر اللاعقلاني على طريقة نيتشه. أمَّا هو فيتعلَّق بفلسفة كانط وهيغل التي تمثّل التيّار العقلاني في الفكر الحديث، ويحارب بكلّ قوّة فلسفة نيتشه وهيجر التي اتُّهمت بتغذية الحركات الفاشية في أوربا في فترة ما بين الحربين العالميتين. وبالتالي فإنَّ المعركة الفكرية الكبرى هي في الواقع بين العقلانيين واللاعقلانيين أو بين الكانطيين والنيتشويين. وقد اختار هابرماس معسكره وهو ليس مستعداً للتفاوض على مواقعه الفلسفية والسياسية. وبما أنَّه ألماني وملاحق بعقدة النازية فإنَّه يحاول دائماً الابتعاد عن نيتشه وهيدجر بل ويحذّر من خطورة فكرهما على الحداثة. وقد اتَّهم هيدجر مباشرة بأنَّه عدوّ للتنوير، وعلى هذا النحو راح الرجل يدافع عن الحضارة الأوربية والعقلانية وفكرة التقدّم في التاريخ. راجع موقع الانترنت: (www.ahewar.org).

(١) أنظر في ذلك: ما بعد الحداثة/ الدكتور باسم علي خريسان: ٢١ و٢٢.

(فهي لم تكن وليدة لحظة معينة، وإنَّما تعود إلى مراحل تاريخية عديدة أسهمت في تشكيلها و بلورتها في شكلها الحالي، هذه المراحل التاريخية تحدَّثنا بأنَّ المشروع الثقافي الغربي قبل أن يبلغ ما بلغه مع الحداثة كان جنيناً أسهمت مجموعة من العوامل والمسبّبات المتنوّعة في إنضاجه)[١]. و ما تزال الحداثة في نظر بعض الفلاسفة المعاصرين هي: (مشروع غير مكتمل)[٢].

ماذا نقصد بالحداثة؟

في البداية وحينما نريد أن نستعرض الفكر الحداثي فإنَّ علينا أن نحدّد معنى المصطلح، ونحن نأسف أنَّ الخلط في تحديد المعاني المقصودة من المصطلح هو الذي أدّى إلى إرباك كبير في الرؤية وربَّما ضياع الحقيقة.

إذن ما هو المقصود بـ (الحداثة)؟

هل نريد أن نناقش المعنى اللغوي للحداثة؟

المعنى اللغوي للحداثة هو الجِدّة في مقابل القِدَم والقدامة، فتقول: حديث في مقابل قديم، وتقول: هذه تجربة حديثة بمعنى أنَّها تجربة جديدة، وتقول: هذا الفتى حَدِث السنّ إشارة إلى صغر السنّ[٣].

لا شكَّ أنَّ هذا المعنى لم يكن هو المنظور للحداثيين ولا منظور لدينا حينما نكتب أو نحاضر في نقد الحداثة.

---

(١) ما بعد الحداثة: ٢٢ و٢٣، نقلاً عن حداثة التخلّف تجربة الحداثة لمارشال بيرمن.

(٢) هوبرماس الفيلسوف الألماني، عن روح الحداثة/ طه عبد الرحمن: ٢٣.

(٣) الحداثة: سنّ الشباب. ويقال: أخذ الأمر بحداثته: بأوّله وابتدائه. راجع: المعجم الوسيط/ إبراهيم مصطفى وآخرون: ١٦٠.

أن تكـون التجربـة أو الفكـرة أو المـشروع قـديماً مـن حيـث العمـر التـاريخي أو جديـداً، فـذلك شـيء لا يـشكّل جـوهر الحداثـة فـي المـصطلح، وإن كانـت الحداثـة قـد تعتمـد أسـاليب وأفكـار وتجـارب جديـدة لكنَّهـا فـي نفـس الوقـت لا تهـتمّ بالعنـصر الزمنـي بمقـدار مـا تهـتمّ بجانـب آخـر، وهـو مـا نريد أن نعرّفه بالإجابة على سؤال: ماذا تعني الحداثة وماذا نقصد بها؟

إنَّ علينـا أن نميّـز بـين مـصطلحين: أحـدهما الحداثـة العلميـة، والآخـر هو الحداثة الفلسفية.

الحداثة العلمية:

تعنـي الحداثـة العلميـة الإبـداع الفكـري للإنسان فـي مجـال التعامـل مـع الطبيعـة وتـسخيرها واسـتثمارها والتـصرّف فيهـا و التغلّـب علـى صـعابها، وفـي مختلـف مجالاتهـا التـي تبـدأ مـن الأرض ومـن عليهـا، ومـا عليهـا، تـصعد إلـى عــالم الفــضاء ومــا فيــه، مــروراً بالإنــسان ومجــالات حياتــه المختلفــة الاقتـصادية والاجتماعيــة والـسياسية وأنمــاط سـلوكه الفـردي والاجتمــاعي شمولاً للحاضر والماضي والمستقبل، وبما في ذلك من الأدب والفنّ.

الحداثـة العلميـة كمـا يـرى جـان مـاري دومينـاك تعنـي: (إتاحـة التطـوّر والتفـتّح فـي آنٍ مـا لكـلّ الإمكانيـات والاحتمـالات مـن أجـل أن يـتمكَّن كـلّ فـرد مـن التمتّـع بهـا، إنَّهـا تعنـي تنميـة القـوى المنتجـة وتنميـة الـوعي بالذات في الوقت نفسه)[1].

الحداثـة العلميـة هـي مـا يعبَّـر عنـه اليـوم بـ (التقنيـة) والتقنيـة هـي إطـار

---

(١) أنظـر: مـا بعـد الحداثـة/ باسـم علـي خريـسان: ٤٧، نقـلاً عـن (مـن الحداثـة إلـى مـا بعـد الحداثة)/ طيب تيزيني/ مجلة الكرمل.

الحداثـة، بـل هـي جـوهر الحداثـة ذاتهـا، إلاَّ أنَّ التقنيـة كمـا يتحـدَّث عنهـا هيـدجر، ليـست فقـط هـي الأشـياء والمخترعـات التقنيـة والآلات التقنيـة بقدر ما هي ذلك الموقف التقني.

هذا الموقف يتضمَّن خطوتين:

الأولـى: هـي التحـريض علـى النظـر المتمثّـل فـي إخـضاع ظـواهر الطبيعة لمعايير مفهومية ومنهجية.

الثانيـة: هـي التحـريض العملـي وهـو إرغـام الطبيعـة علـى تـسليم خيراتها وأسرارها من أجل تحوّلها إلى قوى وقدرات[١].

إنَّ العـالم البـشري اليـوم غـارق فـي مظـاهر هـذه الحداثـة العلميـة، التـي تركـت بـصماتها فـي كـلّ مجـالات الحيـاة، ولاحقـت الإنـسان حتَّـى فـي أنمـاط مأكلـه وملبـسه ومـسكنه وحياتـه العائليـة والفرديـة، فـضلاً عـن سـبل العيش الاجتماعي.

لكـن الحداثـة لـم تقـف عنـد هـذا الحـدّ، وإنَّمـا تطـوَّرت لتتحـوّل إلـى منهج فلسفي هو ما نعبّر عنه بـ (الحداثة الفلسفية).

الحداثة الفلسفية:

إذا كانت الفلسفة تعني دراسة الوجود من حيث الهوية والغاية والمبدأ والمنتهى، الوجود ما هو؟ ولماذا؟ وما هي بدايته؟ وما هي نهايته؟

فـإنَّ الحداثـة الفلـسفية تعنـي الرؤيـة التـي تقـدّمها الحداثـة تجـاه الوجود من حيث الهوية، والغاية والمبدأ والمنتهى.

فقد قفزت الحداثة _ كما قلنا _ من دراسة المفردات الوجودية الخارجية

---

(١) أنظر: الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ٥١ و٥٢.

ـ والتي هي مجالات العلم ـ مثل الطبيعة، الحياة، الجسم، المناخ، الجغرافية، التاريخ، المجتمع، لتطال الوجود بشكل كلّي ـ وهو موضوع البحث الفلسفي ـ وتقدّم رؤية خاصّة في هذا الموضوع تعتمد مبدأ الذاتية والعقلانية كأسس للرؤية الفلسفية الحداثية ـ وكما سنشرحه فيما بعد ـ.

وإذا تساءلنا عن النشأة التاريخية للحداثة الفلسفية فربَّما يتَّفق كتّاب الحداثة على أنَّ (الوعي الفلسفي بالحداثة يعود بدون جدل إلى هيجل[١] ـ القرن التاسع عشر ـ)[٢]، فهو أوّل مفكّر تحقَّق لديه وعي واضح بالروابط العميقة بين الأحداث الكبرى المدشنة للحداثة، واستشعر جدَّتها الكلّية بالقياس إلى ما سبقها، وإلى الدلالة الفلسفية المشتركة بين أحداث متناثرة[٣].

في الوقت الذي يرى هيدجر[٤] أنَّ (كانط ـ القرن الثامن عشر ـ هو مؤسّس أو رائد الحداثة الفلسفية) وهو ما يراه فوكر أيضاً معتبراً أنَّ كانط[٥] هو عتبة الحداثة الفلسفية[٦].

---

(١) جورج ولیم فردریش هیجل (١٧٧٩ - ١٨٣١م): فيلسوف ألماني صاحب المنطق الجدلي الهيجلي. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/ منير البعلبكي: ٤٣؛ موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٥٩٧.

(٢) أنظر: الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ٣٢.

(٣) الحداثة وما بعد الحداثة: ٤٣.

(٤) مارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦م): فيلسوف ألماني يعتبر مؤسّس الفلسفة الوجودية. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/ منير البعلبكي: ٤٣؛ موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٥٧٠.

(٥) عمانوئيل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م): فيلسوف ألماني يعتبر أحد أعظم الفلاسفة في جميع العصور. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/ منير البعلبكي: ٥١؛ موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٢٦٩.

(٦) أنظر: الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ٣٣.

موضوع دراستنا المقارنة:

إنَّ (الحداثة الفلسفية) هي موضوع دراستنا المقارنة بالفكر الإسلامي، حيث نكتشف مجموعة تقاطعات بين الحداثة الفلسفية وبين الفكر الإسلامي من حيث المنهج ومن حيث الموقف الفلسفي الميتافيزيقي، الأمر الذي يدعونا للقيام بعملية تقويم ونقد للعثور على نقاط الخطأ والصواب في الحداثة الفلسفية من وجهة النظر الإسلاميّة[١].

أمَّا (الحداثة العلمية) فإنَّ الإسلام يقف مرحّباً بها وداعياً إليها ومنفتحاً عليها ولا نجد ثَمَّة إشكالية بين الإسلام والحداثة العلمية.

عوامل نشوء الحداثة:

نستطيع القول: إنَّ (الحداثة العلمية) هي نتيجة طبيعية لحركة الإنسان ضدّ الجهل، هذه الحركة التي تجد أصولها في عقل الإنسان، ونزعته الفكرية، التي امتاز بها عن سائر الحيوانات، فقد كان من الطبيعي أن تصل به هذه النزعة إلى كشف أسرار الكثير من المجاهيل، و تكوين منظومة علمية تدع وراءها عالم الخرافة والأسطورة.

بل نستطيع القول: إنَّ مرحلة الخرافة والأسطورة التي صحبها ركود في الميادين العلمية هي الأخرى كانت محاولة من أجل تفسير المجهول الذي يحيط بالإنسان، فهي إذن خطوة في سبيل التغلّب على

---

(١) في الوقت الذي حاول بعض الباحثين الإسلاميين التمييز بين ما أسماه (روح الحداثة) و(دوافع الحداثة) معتبراً روح الحداثة انطلاقة صحيحة وفعلاً إيجابياً ولكن ما نعتبره سلبياً هو واقع الحداثة الغربية، قائلاً: إنَّ (روح الحداثة ليست من صنع الإنسان الغربي بل هي من صنع المجتمع الإنساني في مختلف أطواره). أنظر: روح الحداثة/ طه عبد الرحمن: ٣٢. (المؤلّف).

المجهول، ولكن عقل الإنسان الذي لا يقف عند حدّ استطاع أن يعبر هذه الخطوة إلى خطوة ثانية هي التي نسمّيها (الحداثة العلمية).

الحداثة العلمية لم تكن قراراً سياسياً اتَّخذه بعض السياسيين، ولا طفرة فكرية لدى بعض المفكّرين، إنَّما هي وليد طبيعي لحركة العقل ومعركته الدائمة في مواجهة الجهل.

ولكن السؤال المهمّ هو كيف قفزت، ولماذا قفزت الحداثة العلمية إلى حداثة فلسفية، وكيف سمح العلم لنفسه أن يعبر جدار ما هو علمي إلى ما هو فلسفي، مع أنَّ العلم دائماً يتحرَّك في مساحات المادة لا فيما وراءها؟

ربَّما أجاب على هذا السؤال أحد أكبر مؤسّسي الحداثة الفلسفية وهو الفيلسوف الألماني هيجل حين رأى أنَّ ثَمَّة عوامل هي التي أفرزت الحداثة الفلسفية. وهي: (الإصلاح الديني والثورة الفرنسية)، حيث قال:

(فمع الإصلاح البروتستانتي لدى لوثر[1] أصبح الإيمان الديني مرتبطاً بالتفكير الشخصي، وكأنَّ العالم القدسي قد أصبح واقعاً مرتبطاً بقرارنا الشخصي، فهذا الإصلاح قام على التأكيد على سيادة الذات، وأبرز قدرتها على التمييز والاختيار باعتباره حقّاً من حقوقها في حين كان الإيمان التقليدي قائماً على ضرورة الإتباع والخضوع للقوّة الآمرة للتراث والتقليد.

كما أنَّ الثورة الفرنسية، وإعلان مبادئ حقوق الإنسان قد فرضت

---

(١) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م): راهب ألماني، تزَّعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/ منير البعلبكي: ٥٦؛ موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٣٦٣.

مبدأ حرّية الاختيار في مقابل (نظرية) الحقّ التاريخي المفروض كقاعدة أساسية للدولة)[١].

لكنَّنا نعتقد بأنَّ الإصلاح الديني الذي قاده مارتن لوثر، والثورة الفرنسية كانتا بمثابة الأساس لتحقيق الحداثة العلمية لدى الإنسان إلاَّ أنَّ ذلك وحده لا يفسّر لنا لماذا وكيف قفزت الحداثة العلمية إلى مجال آخر من خارج اختصاصها وهو الشأن الفلسفي؟ وكيف تحوَّل الطبيب إلى فيلسوف؟ مع أنَّ التقدّم العلمي في مجال الطبّ _ مثلاً _، وتحرّر إرادة الإنسان في هذا المجال لا تعني أبداً تجاوز عالم ما هو المرئي إلى عالم ما وراء المرئي والذي هو من شأن الفيلسوف.

أمَّا نحن فنعتقد أنَّ (الحداثة الفلسفية هي ردَّة فعل متطرّفة ضدّ الاستغلال الديني المتطرّف الذي مارسته الكنيسة يومئذٍ).

لقد كانت مرحلة ما قبل الحداثة هي (المرحلة التي عاشت فيها أوربا في ظلّ نصوص مقدَّسة، أي عندما كانت الكاتدرائية تسيطر على المدينة الرئيسية، وكانت المطرانية تسيطر على المدينة الأصغر)[٢].

(كان الإنسان في تلك الفترة يعيش في عالم لا يملك فيه أيّ شيء ولا يعرف من هو وما دوره في الحياة، والعقل لم يسمح له في التعبير عن نفسه ما دام الإرهاب الذي تمارسه الكنيسة باسم الدين تحت دعاوى حمايته من الزندقة والانحراف حاضرة في الأذهان والنفوس والعلم كان حكراً على رجال الدين ومفسّريه الذين جعلوا من اللاهوت

---

(١) أنظر في ذلك ما نقله محمّد سبيلا في كتابه الحداثة وما بعد الحداثة: ٢٥.

(٢) أنظر: ما بعد الحداثة/ باسم علي الخريسان: ٢٤، عن مصادر أخرى.

علماً للعلوم، وجعلوا من جميع المعارف الممكنة استطالات للعلم الوحيد، اللاهوت)[1].

وإلى جانب ذلك بالطبع كانت سيطرة الخرافة والتي شجَّعت عليها الكنيسة أيضاً، وتكبيلها لحركة عقل الإنسان هي السبب الآخر لحدوث ردَّة فعل عنيفة ومتطرّفة ليس ضدّ الخرافة العلمية فحسب وإنَّما ضدّ الخرافة الفلسفية.

(هذه المجتمعات كانت تعتقد بالأساطير والخرافات والسحر وكانت القدرية والجبرية هي التي تحكم سلوك الإنسان اليومي، فهو يخشى الخروج عمَّا اكتسب من بيئته أو محيطه الاجتماعي، ليس فقط لكون ذلك قد يؤدّي به إلى الإقصاء الاجتماعي، وإنَّما للدور الذي تلعبه هذه المنظومة الثقافية من أهمّية في حياة الفرد، فهي التي تزوّده بالزاد النفسي الذي يمكّنه من العيش في تلك الفترة التي لا يجد نفسه فيها أكثر من شيء عديم الإرادة من خلال الاعتقاد بأنَّ ما يعيشه الإنسان من بؤس قدّر إليه من قوى خارجية لا يملك تجاهها إلاَّ الخضوع)[2].

وهكذا كان.

حينما تجاوزت الكنيسة حدودها الدينية ذات الشأن الفلسفي وتدخَّلت فيما هو علمي، واجتماعي، واقتصادي وما شاكل ذلك، وحينما حاولت الخرافة أن تفرض أغلالها على عقل الإنسان فيما هو علمي وفيما هو فلسفي، كان من الطبيعي أن يتمرَّد الإنسان ليقوم بردَّة فعل معاكسة في الاتّجاه ومتساوية في القوّة والتطرّف.

---

(١) ما بعد الحداثة: ٢٥، نقلاً عن ما بعد الحداثة في عالم بلا حداثة/فيصل دراج.

(٢) أنظر ذلك في: ما بعد الحداثة/باسم خريسان: ٢٧، عن كتاب (العودة إلى الذات) للدكتور علي شريعتي.

فبدلاً من الحرب ضدّ الجهل، والخرافة، وضدّ الحكر الكنسي، حمل الإنسان الحداثي لواء الحرب على الله، والقيم، والمطلق، وما وراء المادة، وهكذا (استبدل الإنسان الحديث الإله المتعالي بآلهة من خشب وهي المخترعات التقنية، ووضع الأصنام الفكرية والتقنية محلّ القيم العليا)[1].

تعريف الحداثة:

كان ما تقدَّم عرضاً سريعاً لنشأة الحداثة، وعلينا الآن أن نعود إلى تعريف الحداثة بشكل دقيق ومنطقي.

التوصيف والتعريف:

إنَّ أكثر ما نعثر عليه لدى كتّاب الحداثة وهم يرومون تعريف الحداثة هو عبارة عن توصيف للحداثة وليس تعريفاً لها، ولكن ما يجب أن يبحث عنه الباحث المقارِن هو التعريف المنطقي.

ما هو التوصيف؟ وما هو التعريف؟

التوصيف هو عبارة عن ذكر وصف من أوصاف الموضوع الذي يراد معرفته، بينما التعريف هو عملية كشف الهوية الحقيقية للشيء، فنحن في التعريف نتعرَّف على واقع الموضوع وهويته وله شروط بأن يكون جامعاً مانعاً[2]، بينما في التوصيف نتعرَّف على بعض أوصافه ومظاهره الخارجية.

فإذا عرَّفت الفلاح ـ مثلاً ـ بأنَّه ذلك الإنسان الفقير الذي يعشق الأرض والزرع فهذا هو توصيف وليس تعريفاً، وكذلك لو قلت في تعريف الغني بأنَّه ذلك الإنسان الذي يجدّد ملابسه في كلّ محفل فذلك

---

(١) الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ٨٢ .

(٢) فيما يخصُّ التعريف وشروطه وأقسامه راجع: المنطق/ محمّد رضا المظفَّر: ٩١.

هو توصيف أيضاً، ولكن التعريف أن نقول: الفلاح هو الإنسان الذي مهنته الزراعة، والغني هو ذلك الذي يملك فائضاً من الأموال.

إنَّ أكثر ما ذكره الباحثون هو توصيفات للحداثة وليس تعريفات ولا بدَّ لنا أن نكتشف ما هو التعريف العلمي لها؟

توصيف الحداثة:

قالوا في توصيف الحداثة:

١ _ (الحداثة ليست مفهوماً اجتماعياً ولا مفهوماً سياسياً ولا مفهوماً تاريخياً بدقّة التعبير إنَّها نمط حضاري متميّز يناقض النمط التقليدي وهي تتميَّز في كافّة الميادين، دولة حديثة، موسيقى، ورسم حديثين، عادات وأفكار حديثة)[١].

٢ _ (الحداثة حركة ذاتية تولّد نفسها بشكل ذاتي وهي حركة تقدّم لأجل الحركة إنَّها حركة تستهدف زيادة القدرة على التحرّك)[٢].

٣ _ بينما يرى هنري لوفيفر أنَّها عبارة عن (عبادة الجديد من أجل الجديد)[٣].

٤ _ أمَّا الدكتور محمّد سبيلا فقد قال: (الحداثة ثورة مستمرّة وتجاوز مستمرّ، وحركة أشكال لا تنتهي، واعتدامية إيجابية لا قرار لها، الحداثة في جوهرها نفي مستمرّ، وتجديد من أجل التجديد)[٤]. (وهي

(١) ما بعد الحداثة: ٤٧، نقلاً عن بودريار.

(٢) ما بعد الحداثة: ٤٥، نقلاً عن سلوتر ديجك.

(٣) ما بعد الحداثة: ٤٦، نقلاً عن هنري لوفيفر.

(٤) الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ١٠٢.

لهاث مستمرّ وراء الجديد والمأمول وانشداد قوي إلى المستقبل المجهول)[١].

٥ _ أمَّا بودلير[٢] فقال: (الحداثة هي ما هو عابر وعارض وفرّار)[٣].

٦ _ وقال هيدجر أنَّها (عدمية وفراغ يتمُّ ملؤه بالأساطير، واصطناع بطولات وأبطال في السياسة والرياضة والفنّ)[٤].

٧ _ في الوقت الذي قال بودريار هي: (تغيير من أجل التغيير، تغيير لا يتوقَّف، أو هي بعبارة أخرى: التغيير وقد أصبح تقليداً وناموساً)[٥].

٨ _ هي: (افتقاد العالم لسحره)[٦].

إنَّنا نلاحظ على مجمل هذه التعاريف أنَّها توصيفات وليست تعريفات فهي تسجّل ظاهرة من ظواهر الحداثة ووصفاً من أوصافها، إنَّها حركة تغيير، ثورة مستمرّة، ما هو عابر، عبادة الجديد، عدمية وفراغ، إلى غير ذلك ممَّا هي مظاهر وانعكاسات ومشاهد لواقع الحداثة، لكن علينا أن نكتشف جوهر الحداثة وحقيقتها وما هو تعريفها العلمي والمنطقي؟

---

(١) دفاعاً عن الحداثة/ محمّد سبيلا: ٦١.

(٢) شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧م): شاعر فرنسي. تميَّز شعره بطابع إباحي. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/ منير البعلبكي: ١١.

(٣) دفاعاً عن الحداثة/ محمّد سبيلا: ٦١، نقلاً عن بودلير.

(٤) دفاعاً عن الحداثة/ محمّد سبيلا: ٦١، نقلاً عن هيدجر.

(٥) دفاعاً عن الحداثة/ محمّد سبيلا: ٦١، نقلاً عن بودريار.

(٦) دفاعاً عن الحداثة/ محمّد سبيلا: ٧٢، نقلاً عن ماكس فيبر.

نصوص مختلفة في تعريف الحداثة:

إنَّ أمامنا مجموعة نصوص يمكن أن نعتبرها تعريفاً علمياً للحداثة:

النصّ الأوّل:

الحداثة هي: (نظرة فلسفية شاملة إلى العالم مبنيّة على العقل وعلى استخدام العقل في الأبحاث والقضايا)(١).

النصّ الثاني:

الحداثة هي: (العقلنة أي تنظيم وضبط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ضبطاً عقلانياً)(٢).

النصّ الثالث:

الحداثة: (تتمثَّل بشكل أساسي في الذاتية ببعديها الأساسيين الحرّية والفكر، إنَّ ما يجعل عصرنا عصراً عظيماً هو الاعتراف بالحرّية وبملكية الفكر).

إنَّ هذه النصوص الثلاثة تتَّجه نحو اكتشاف جوهر الحداثة وليس معرفة مظاهرها وسماتها فقط.

فالحداثة هي (نظرة فلسفية) وهذا ما يميّزها عن التقدّم العلمي والتطوّر التقني، وهي (شاملة)، وليست رؤية فلسفية في مسألة من مسائل الكون والعالم والإنسان، بل شاملة لكلّ المجالات الفلسفية: العالم، بدايته، نهايته، غاياته وعلاقته بمبدأ الوجود، القيم الأخلاقية في الوجود مدى واقعيتها، أم عدم واقعيتها، وحتَّى تصل إلى الفنّ والأدب باعتباره تعبيراً عن تطلّعات النفس

---

(١) ما بعد الحداثة/ خريسان: ٤٧، عن مجلة المستقبل العربي/ سامي أدهم.

(٢) دفاعاً عن الحداثة: ٧٣.

الإنسانية، فالحداثة لها رأي في كلّ هذه المناحي والمجالات _ كما سنقرأ ذلك _ إذن فهي نظرة فلسفية شاملة، لا تقبل بالصمت عن أيّ سؤال في تلك المجالات بل تحاول أن تجيب عليه.

وهي (مبنية على العقل) في كلّ مجالات البحث، ولذا فقد عرَّفوها بأنَّها (العقلنة) و(العقلانية) التي ترفض أيّة معلومة أو موقف لا يخضع للتحليل العقلي.

ولكن هيجل وهو أبو الحداثة الميتافيزيقية كشف عنصراً آخراً في ماهية الحداثة لم يكن أقلّ من العقلنة، وهو عنصر (الحرّية) بمعنى حرّية الإرادة الإنسانية وبنحو مطلق حيث يتمّ رفض أيّ قرار مفروض على الإنسان من خارجه، وهذا هو ركن أساسي في جوهر الحداثة الفلسفية.

ومهما يكن فنحن نرى أنَّ النصوص السابقة هي نصوص تعريفية للحداثة.

التعريف الذي نختاره:

ورغم ذلك كلّه فإنَّ النصوص السابقة لم تكن كافية في التعريف الدقيق بالحداثة لأنَّ مبدأ حرّية الفكر والإرادة _ والذي جاء التأكيد عليه في تعريف هيجل، هو مبدأ تعترف به فلسفة[١] الأديان التوحيدية والتي تؤكّد هي الأخرى على الدور الفاعل للعقل، كما تؤكّد على المساحة الكبيرة للإرادة الإنسانية.

---

(١) يجدر بنا أن نوضّح هنا أنَّ الدين الإلهي ليس فلسفة، ولكنَّه يستبطن ويعتمد على رؤية فلسفية تجاه العالم وهي عقيدة التوحيد التي تتفرَّع عنها كلّ الرؤى والمواقف الدينية. (المؤلّف).

وإذا أخذنا الإسلام نموذجاً _ وهو لا يختلف في ذلك عن سائر الأديان _ فإنَّه يؤكّد على أنَّ العقل هو أكرم حقيقة وجودية يجب احترامها فإنَّ «أوّل ما خلق الله العقل» وجعله مقياساً للثواب والعقاب قائلاً: «بك أُثيب وبك أُعاقب»[(١)] وجاءت النصوص القرآنية الواحدة تلو الأخرى لتؤكّد أنَّ قيمة الإنسان بعقله، ودعته لاستخدام العقل بشكل واسع، ورفض أيّة قضيّة لا يشهد عليها العقل بالصحَّة، ولا يؤيّدها العلم بالتوثيق والبرهان قائلاً: [وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ][(٢)]، و[قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ][(٣)]، ومؤكّداً أنَّ كلّ التوصيات الإلهية إنَّما جاءت من أجل تفعيل الإنسان لعقله واعتماده عليه قائلاً: [قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ][(٤)]، [ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ][(٥)].

ولم تكن قضيّة في الإسلام أكثر وضوحاً من احترام العقل واعتماده، والدعوة للبحث عن الدليل العلمي بعيداً عن أيّة مقولة لا يدعمها الدليل.

أمَّا مسألة (الإرادة) فإنَّ الإسلام ومثله كلّ الأديان التوحيدية كانت هي السبّاقة في هذا المضمار، حيث أكَّدت أنَّ كلّ حركة في السلوك البشري تفقد قيمتها ما لم تكن نابعة عن إرادة حرّة، ورفضت

(١) أنظر في ذلك: النصوص المهمّة في باب العقل والجهل من كتاب أصول الكافي للكليني الجزء الأوّل.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) البقرة: ١١١.

(٤) الحديد: ١٧.

(٥) الأنعام: ١٥١.

الأديان حتَّى الإيمان بالله تعالى إذا كان منطلقاً من إكراه، وليس من قناعة علمية حرّة معتبراً ذلك نفاقاً وهو أسوأ من الكفر، لأنَّ الكفر لا يستبطن إرادة معاكسة للظاهر بينما النفاق يستبطن إرادة أخرى يتمّ التكتّم عليها.

إنَّ أمامنا مئات الآيات القرآنية ونصوص السُنّة الشريفة في هذا المجال.

وفي ضوء ذلك لا يكون تعريف الحداثة الفلسفية بأنَّها (النظرة الفلسفية الشاملة التي تعتمد عنصر العقل وحرّية الإرادة) كافياً لاستكشاف ما هو جوهر الفرق بينها وبين فلسفة الأديان التوحيدية، في الوقت الذي يجب أن يكون التعريف العلمي الدقيق جامعاً لكلّ أفراده مانعاً لدخول الأفراد المغايرة للهوية المعرَّفة، إنَّ علينا أن نبحث فيما هو الفارق أو السمة المائزة بين الفلسفة الحداثية وبين غيرها من الفلسفات.

ومن الحقّ أن نقول: إنَّ الفلاسفة الحداثيين أمثال هيجل، وهيدجر، وهوبرماس قد كشفوا تلك السمة المائزة للحداثة رغم أنَّهم لم يستخدموها في تعريف الحداثة لتصبح معنىً دقيقاً ومحدّداً، وهذا الأمر هو الذي أوجب أن يبقى مفهوم الحداثة الفلسفية _ الميتافيزيقية _ مفهوماً فضفاضاً غير دقيق المعالم ولا واضح الحدود.

إذن ما هو الأمر الجوهري في الحداثة؟

إنَّ (الفردانية) في استخدام العقل والإرادة هي التي تشكّل المفهوم الكامل للحداثة الفلسفية. وحينما تحدَّث هيجل عن عنصر (الفكر والحرية) في مفهوم الحداثة فإنَّه كان يقصد الفكر الفردي والحرّية الشخصية لدى كلّ إنسان وهذا ما يعبَّر عنه أحياناً بـ (الذاتية) أو (النزعة الإنسانية).

فالحداثة الفلسفية تتحدَّث عن العقل الفردي وتمنحه السلطة المطلقة في أن يرفض أو يقبل أيّة معلومة، وتتحدَّث عن الإرادة الشخصية لكلّ فرد في أن يفعل أو لا يفعل ما يريده هو بالذات دونما أيّة سلطة أخرى تفرض عليه مواقف معيّنة وحتَّى لو كانت هذه السلطة العليا هي الله.

وفي ضوء هذا المعنى يكون الإنسان هو الإله، وهو المطلق، وليس الكائن المحدود الذي يجب أن يخضع لمطلق أو مطلقات فوقه(١).

وإذا كان العقل لدى كلّ إنسان يتحرَّك بين مجموعة معلومات غير ثابتة وغير مستقرة كانت السمة الأخرى المميّزة للحداثة هي عنصر (اللاثبات)، فلا معلومة ثابتة لا تقبل التغيير، ولا قيمة ثابتة لا تقبل النقد، كما لا إرادة واحدة لا تقبل التحرّك والتحوّل في المواقف، وفي ضوء ذلك يكون الإنسان حرّاً وبنحوٍ مطلق في اعتماد أيّة معلومة تثبت لديه، واختيار أيّ موقف يرغب فيه، حيث لا توجد مطلقات علمية أو مواقف واحدة لا تقبل خيارات أخرى.

وفي ضوء ذلك سيكون التعريف العلمي الدقيق للحداثة كالتالي: **(الحداثة هي نظرة فلسفية شاملة للعالم تنطلق من اعتبار الإنسان الفرد ــ في فكره وإرادته ــ هو المطلق الذي لا يجوز إخضاعه لأيّة سلطة أخرى).**

وهذا بخلاف ما تراه فلسفة الأديان التوحيدية في مجال العقل والإرادة (الفكر والحرّية) فالعقل الفردي ــ في ضوء المفهوم الديني ــ قد يضيع في متاهات، وقد يتوقَّف عن الحركة بالاتجاه الصحيح، كما

---

(١) سوف يأتي المزيد من التوضيح والشرح لهذه المفاهيم لدى الحديث عن مبادئ الحداثة في الفصل اللاحق.

أنّ الإرادة الذاتية قد تخضع لتأثيرات الهوى وتتحرَّك وفق نزعات غريزية مضطربة بحيث تفقد انتخابها للموقف الصحيح ومن هنا كان الإنسان بحاجة إلى اعتماد (العقل الشاهد)[1] وهو عقل الأنبياء والرسل، وانتخاب الاتجاه الحركي الصحيح الذي حدَّدته (الإرادة الشاهدة)[2] للأنبياء والرسل باعتبار أنّ هؤلاء يمثّلون العقل الأكمل والإرادة الأزكى التي ارتبطت بالكمال المطلق والحقيقة المطلقة وهي الله تعالى فكانوا رسلاً منه إلى الإنسان [مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ][3]، الإيمان في مجال الفكر، والإصلاح في مجال الإرادة [فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ] هما السياج الذي يجب أن يتحرَّك الفكر وتتحرَّك الإرادة في داخلهما.

وهذه الحاجة إلى الأنبياء باعتبارهم الأكثر معرفة والأنقى ذاتاً هي تعبير عن ضرورة بشريّة كما كان الإنسان بحاجة إلى الخبرة والمعرفة لدى الكفاءات الأخرى في مختلف التخصصات العلمية كالطبّ والهندسة وكما كان الإنسان الفرد بحاجة إلى اتّباع إرادة القيادات الكفوءة في المجالات السياسية والاجتماعية الأخرى، ولا يمكن للإنسان أن يعتمد هنا وهناك الفردانية المطلقة رافضاً بذلك الثقة بأيّة معلومة أخرى أو إرادة أخرى قادمة إليه من خارجه[4].

(١) [يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً] (الأحزاب:٤٥).

(٢) [وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا] (الحشر: ٧).

(٣) الأنعام: ٤٨.

(٤) سوف يأتي المزيد من التوضيح لهذه الفكرة الأساسية في الفرق بين الحداثة والأديان التوحيدية. (المؤلّف).

لماذا نقد الحداثة؟

هل نحن ضدّ الحداثة؟ هل نريد الدفاع عن التراث والتقليد بشكل مطلق؟ هل نريد التباكي على عصر التدفئة النفطية، أو وسائط النقل الحيوانية؟ أم هل ننكر تقدّم الغرب علينا من خلال عالم الحداثة؟

مرَّة أخرى يجب أن نؤكّد أنَّنا نتناول بالبحث والنقد والتحليل (الحداثة الفلسفية) وليس (الحداثة العلمية)، وإذا كان الغرب قد تفوَّق علينا، وسيطر على الطبيعة فإنَّما من خلال التقنية العلمية وليس من خلال ميتافيزيقيا الحداثة التي يعيش الغرب في العصر الحاضر ردة عليها وفي بداية طريق العودة إلى الله تعالى، حيث (نشهد عودة العامل الديني إلى مجتمعات صناعية حديثة كنّا اعتقدنا إنَّها قد تحرَّرت منه كلّياً ونهائياً)[1].

ربَّما هذا التميّز بين الحداثة العلمية وأصولها الفلسفية (الحداثة الفلسفية) هو الذي دعا بعض الكتاب الإسلاميّين للحديث عن إمكانية إنشاء (حداثة إسلاميّة) تمتلك كلّ مقوّمات التقدّم الصناعي والتكنولوجي الحديث لكن عبر رؤية وفلسفة وأُطر إسلاميّة[2].

وهذا ما يراه آخرون من أنَّ الحداثة يمكن أن تعيش وسط ثقافات ومناخات خارج الثقافات والمناخات الغربية، كما تشهد له التجربة اليابانية[3] وكما قد تسعى التجربة الإيرانية المعاصرة للاتجاه نحوه.

---

(١) أنظر: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد/ محمّد آركون/ ترجمة هاشم صالح.

(٢) أنظر: روح الحداثة/ طه عبد الرحمن: ١٧.

(٣) الحداثة وما بعد الحداثة/ محمّد سبيلا: ٧٠ و٧١.

الفلسفة الحداثية محايدة:

وحينما نتصدّى لنقد الحداثة الفلسفية فإنَّ من المفيد أن نعرف أنَّ الحداثة الفلسفية ليست مؤمنة ولا ملحدة بل هي محايدة تقبل كلا الحالين.

ربَّما نجد الفلسفة الوجودية بزعامة جان بول سارتر[١]، والفلسفة الماركسية بزعامة كارل ماركس هي فلسفات إلحادية لا تؤمن بالله، لكن هذه الفلسفات لم تكن هي التعبير المطلق والأوحد عن الحداثة الفلسفية بل هي صورة من صورها ولون من ألوانها.

والأمر كما قاله برينولاتور: (صار بمقدور الحداثيين أن يكونوا علمانيين ومؤمنين في آنٍ واحد)[٢].

لأنَّ أقصى ما تريده الحداثة الفلسفية هو إقصاء الله عن التدخّل في شأن الإنسان أو في شأن الطبيعة، وفيما عدا ذلك لا تمنع عن الإيمان بالإله الذي يسكن القلب والوجدان فقط.

(لقد أعيد ابتداع الروحية أي نزول الله القدير في عمق الوجدان دون أن يتدخَّل أبداً في القضاء والحكم)[٣].

(ما من أحد حداثي حقّاً لم يقبل بإبعاد الله عن لعبة القوانين الطبيعية كما عن قوانين الجمهورية وأصبح الله إله الميتافيزيقيا المُستبعَد)[٤].

* * *

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠م): روائي وكاتب مسرحي وفيلسوف فرنسي. يُعتبر زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية. راجع: قاموس المورد، معجم أعلام/منير البعلبكي: ٧٧؛ موسوعة الفلسفة/عبد الرحمن بدوي ١: ٥٦٣.

(٢) لم نكن حداثيين أبداً/برينولاتور/ترجمة أياس حسن وعدنان محمّد: ١٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

الفصل الثاني:

مبادئ الحداثة

الحداثـة تعـود تاريخيـاً إلـى فلـسفة قديمـة (ماتـت فـي التـاريخ الـسحيق الماضي) واليوم تعتبر الحداثة إعادة لتلك الفلسفة القديمة.

فيمـا سـبق كانـت هنـاك فلـسفتان: الفلـسفة الواقعيـة[1]، والفلـسفة السفسطائية[2].

والسفـسطة كانـت تعنـي الاعتقـاد بـأنَّ الوجـود هـو محـض أوهـام ومحـض انعكاسـات فـي الـذهن لا واقعيـة لهـا. والبيـت الـشعري الـذي يـشرح مفهوم السفسطة يقول:

كـلّ مـا فـي الكـون وهـمٌ أو خيـال أو عكـوسٌ فـي المرايـا أو ظـلال[3]

فمـن الناحيـة العلميـة فـإنَّ الألـوان _ مـثلاً _ لـيس لهـا واقعيـة، وإنَّمـا هـي تـراكم لـذرّات الجـسم المرئـي ونتيجـة لهـذا التـراكم يكـون انعكاسـه علـى العـين البـشرية بـالألوان المعروفـة، مثـل قـوس قـزح فهـو يظهـر فـي طقـوس مناخيـة معيّنـة، ومهمـا تقـدَّم الإنـسان بـرّاً أو جـوّاً فهـو لـن يلتقـي بهـذا القـوس، فعلميـاً يتبـيَّن أنَّـه لـيس شـيئاً موجـوداً وإنَّمـا هـو انعكاسـات ضـوئية وكذلك زرقة السماء.

هكـذا تقـول السفـسطة إن كـل مـا ندركـه حولنـا هـو انعكاسـات وهميّـة لخيال الإنسان لا تعبّر عن حقيقة في الواقع الخارجي.

---

(١) راجع: موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٦٢٤.

(٢) راجـع: موسـوعة الفلـسفة/ عبـد الـرحمن بـدوي ١: ٥٨٦؛ نظريـة المعرفـة/ الـسيّد حـسن إبراهيميان: ٤٤.

(٣) البيت مطلع غزل للعارف عبد الرحمن الجامي في ديوانه.

لقد جاءت الفلسفة الواقعية وبرهنت على بطلان الفلسفة السفسطائية، وواضعة أُسس المنطق الاستدلالي وهو المعروف بالمنطق الأُرسطي واعتمدت يومئذٍ أدوات البرهان المنطقي.

أمَّا الحداثة فهي اقتراب من السفسطة القديمة، حيث تعتبر الحداثة الأمور الخارجية وطبيعة إدراكنا لها يتأثَّر بذات الفرد، فنحن مثلاً نرى القمر الآن على شكل كرة مستديرة لكن ليس بالضروري أن يكون هو كذلك على أرض الواقع. فالقوى الإدراكية والذات الإنسانية هي التي تفرض ألوانها على الواقعيات الخارجية، وقد تكون هذه الواقعيات بشكل آخر، وهنا تأتي النظرية النسبية التي تقول: إنَّ تحديد الأشكال أو الأوصاف للأشياء الخارجية هو تحديد ذاتي وليس واقعياً حيث يختلف من شخص إلى آخر كما هو في مثال الألوان، وهكذا تكون الأخلاق والعلم والدين والحقّ والباطل في نظر الحداثة.

فالحداثة تقترب من الفلسفة السفسطائية ويجب أن نؤكّد أنَّه ليست الحداثة كلّها على باطل بل فيها شيء كثير من الحقّ، كما كانت الفلسفة السفسطائية كذلك.

فالعلم أثبت أنَّ لكلّ كائن مقدرات محدودة خاصّة به، فالإنسان لا يستطيع أن يسمع أصواتاً معيّنة ضمن ذبذبات خاصّة، بينما تستطيع بعض الحيوانات أن تسمع تلك الأصوات، ممَّا يعني أنَّ الصوت لا حقيقة له أكثر من طبيعة تلقّي الأذن للذبذبات الخارجية.

وهكذا أثبت العلم بأنَّ الصقر ـ مثلاً ـ يستطيع أن يرى فريسته على بُعد عشرين كيلومتراً، بينما ليس للإنسان مثل هذه القدرة، كما الخفاش قادر على أن يلتقط الأمواج الصادرة من جدار ويغيّر اتّجاه حركته بسرعة فائقة دون أن يعتمد على عينيه.

مبادئ الحداثة:

لا يمكن اعتبار الحداثة تراكم فلسفات مختلفة، بل هي مدرسة فلسفية لها مبادئ قابلة للعرض والمناقشة فهناك ثلاثة مبادئ للحداثة:

المبدأ الأوّل: مبدأ الذاتية:

وهذا ما يعبّر عنه أحياناً بمبدأ الفردانية وحسب ما يعبّر هيدجر عنه بـ (النزعة الإنسانية) والإنسانية هنا ليس بمعنى الضمير أو العاطفة بل بمعنى أنَّ الإنسان هو المحور الذي يعطي القيمة للأشياء من حوله فما يستطيع الإنسان أن يخضعه لتجربة فهو مقبول وما عدا ذلك فهو غير واقعي ولا مقبول، وهذا ـ طبعاً ـ يقودنا إلى مبدأ جديد وهو (أصالة الإنسان) بمعنى أنَّ الإنسان هو أصل الحقيقة، فالإنسان هو الذي يحدّد الخير والشرّ والحقّ والباطل والموجود واللاموجود، فكلّ شيء خارج إدراك الإنسان لا قيمة له من وجهة نظر الحداثة.

وهذا المفهوم يحلّله العالم (هوبرماس) فيقول: إنَّ هذا المبدأ له انعكاسات، ومن هذه الانعكاسات هي نظرية الفردانية ونظرية حقّ النقد إلى ما لا نهاية.

إنَّ نظرية الفردانية تعتبر الإنسان الفرد هو المقياس لكلّ حقيقة، كما تؤمن بمبدأ حقّ النقد المطلق أي أنَّه لا يوجد شيء مقدَّس لا يقبل النقد والنقاش، وهذا يشمل الخالق والدين وكلّ شيء فهو قابل للنقد حتَّى يثبت عليه البرهان[1].

---

(١) يوجز هابرماس أربع دلالات ملازمة مرتبطة بمفهوم مبدأ الذاتية:

١ - الفردانية: وتعني أنَّ الفرادة الخاصّة جداً هي التي لها الحقّ في إعطاء قيمة لإدعاءاتها.

٢ - الحقّ في النقد، ويعني أنَّ مبدأ العالم الحديث يتطلَّب أنَّ على كلّ فرد أن يتقبَّل فقط ما يبدو مبرّراً ومقنعاً. \

المبدأ الثاني: مبدأ العقلانية:

(وهو تطوّر لمبدأ الذاتية) حيث يُقال: إنَّ الحداثة هي عقلنه الأشياء، أي إنَّ كلّ شيء يجب أن يخضع للاستدلال العقلي، فالحداثة تقف في مُقابل الخرافة[1].

لذلك تطلب الحداثة إخضاع كلّ المسلّمات والمعلومات في مجال العلم والأخلاق والدين للعقل. فخسوف القمر وكسوف الشمس كان الناس _ سابقاً _ يبحثون عن أسباب ميتافيزيقية لهذه الظواهر وليس عللاً طبيعية فيما تبين بعد ذلك أنَّ ثَمَّة عوامل مادية طبيعية تقف وراءها، وهكذا يكتشف أنَّ من الجدير البحث دائماً عن علل طبيعية وأسباب للحوادث بعيداً عن التفسيرات الميتافيزيقية حتَّى إذا كان الأمر بمستوى البداهة.

وبهذا الصدد يجب أن نقول: إنَّ الإسلام يؤمن بالعقل باعتباره مقياساً لكشف الحقيقة ولكنَّه يفرّق بين العقل الاستدلالي والعقل التعبّدي، مثل الطبيب عندما يشخّص حالة المريض ويعطيه النتيجة فنحن نقبل بهذه النتيجة على أساس العقل التعبّدي لأنَّ الطبيب يملك دائرة معلومات أوسع من معلوماتنا لذلك لا بدَّ أن نقبل به _ وفقاً لأسس علمية وعقلية _ وسوف نعود طبعاً لمناقشة هذه المبادئ بشكل موسَّع.

]

٣ - استقلالية الفعل، فمن خصائص العصور الحديثة تهيّؤها لتقبل ما يفعله الأفراد والاستجابة له.

٤ - الفلسفة التأملية ذاتها، فمن خصائص العصور الحديثة كذلك عند هيجل، أنَّ الفلسفة تدرك الفكرة التي تحتاز وعيها بذاتها. راجع: مخاضات الحداثة/ محمّد سبيلا: ٢٢ و٢٣ و٤١.

(١) راجع: مخاضات الحداثة/ محمّد سبيلا: ٢٤.

المبدأ الثالث: مبدأ العدمية:

وهو يعني غياب المعنى والغاية في هذا العالم. حيث لا هدف ولا غاية ولا هندسة هادفة قد خُلقَ على أساسها الكون[1].

فالحداثة عند تحليلها للعالم رأت أنَّه يتكوَّن من فوضى وعدمية وغياب المعنى أي انتفاء المقاصد الغائية للكون، في حين أنَّ الرؤية الدينية تقول: إنَّ الكون يسير حسب هندسة معيَّنة وهدف واضح **[**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**]**[2]، وحسب نظام مرتَّب ونظام مصمَّم على أساس غاية معيَّنة **[**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**]**[3]. في فلسفة الحداثة تنتفي الغايات والمقاصد للوجود الكوني الكبير، أو بعبارة (ماكس فيبر)[4]: (افتقاد العالم لسحره)[5]. أمَّا في الفلسفة الدينية فهناك أسرار ومقاصد وراء هذا الوجود الكوني الكبير تجعله بعيداً عن العبثية واللاهدفية رغم أنَّ الإنسان قد لا يدرك تلك الأهداف والمقاصد والأسرار.

* * *

---

(١) راجع: مخاضات الحداثة/ محمّد سبيلا: ٢٥.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) القمر: ٤٩.

(٤) ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠م): فيلسوف اجتماعي واقتصادي وسياسي ألماني. راجع: موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي ٢: ٢١٤.

(٥) مخاضات الحداثة/ محمّد سبيلا: ٢٥.

الفصل الثالث:

نقد

مبادئ الحداثة

قلنا: إنَّ الحداثة لها ثلاثة مبادئ هي: الذاتية، العقلانية، العدمية ولنبدأ في هذا الفصل بنقد علمي لهذه المبادئ الثلاثة.

البحث الأوّل: نقد مبدأ الذاتية

مبدأ الذاتية كان له ثلاثة مداليل:

أوّلاً: لا سلطة فوق الذات.

ثانياً: لا سعادة إلاَّ من خلال التوافق مع الذات.

ثالثاً: لا قيمة أخلاقية إلاَّ من خلال منافع الذات.

وشرح هذه المداليل بالشكل التالي:

المدلول الأوّل: الإنسان هو القيمة الحقيقية في هذا الوجود وهو الكلّ بالكلّ، في أهدافنا وحركتنا، ولا سلطة فوق الإنسان أي لا سلطة فوق الذات، والذات الإنسانية مقدَّسة مطلقاً ولا يجوز إخضاعها لأيّة قدرة عليا من خارج إرادتها وقناعتها.

المدلول الثاني: لا سعادة إلاَّ عبر التوافق مع أهواء الذات، السعادة بدون تحقيق منافع الذات ليست سعادة، الحداثة تقول: حقّق أهواءك ونزعاتك، انفتح على ذاتك وأشبعها بغرائزها سوف تسعد. المفروض على الشخص أن يأخذ حرّيته كاملة.

المدلول الثالث: لا قيمة أخلاقية إلاَّ من خلال منافع الذات فإنَّه بدون مصلحة الإنسان الشخصية وتحقيق المتعة له لا قيمة للقضايا الأخلاقية مثل الأمانة، الوفاء بالعهد، الاحترام، برّ الوالدين، إذا لم تحقّق لك المصلحة شخصية، حتَّى قيم التضحية والصدق والوطنية تسقط بدون تحقيق منافع شخصية وأرباح ذاتية للإنسان، وهكذا تكون الذات بموضع

المقدَّس المطلق ولا سلطان فوق الذات بل هي بمثابة الله، أزاحوا كلمة الله ووضعوا بدلها الذات.

الذات الإنسانية في ضوء الفكر الإسلامي:

ولكن كيف ينظر الإسلام إلى ذات الإنسان؟ إنَّ علينا أن نكوّن رؤية شاملة عن النظرية الإسلاميّة في هذا الموضوع.

وبهذا الصدد نقول: إنَّ لدينا مجموعة أمور في الرؤية الفلسفية الإسلاميّة للذات الإنسانية يمكن أن نسجّلها بالشكل التالي:

(١) عبودية الذات، (٢) معركة الذات، (٣) افتقار الذات، (٤) عمر الذات، (٥) ضعف الذات، (٦) حبّ الذات، (٧) رعاية الذات، (٨) اجتماعية الذات.

النقطة الأولى: عبودية الذات:

الرؤية الفلسفية الإسلاميّة تقول: أيّها الإنسان أنت مخلوق، لك خالق هو الله الذي خلق كلّ شيء، [الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسانَ][1]. الله هو محور الوجود والإنسان ليس هو السلطة المطلقة في الوجود وإنَّما توجد سلطة فوق الإنسان هو الله.

النقطة الثانية: معركة الذات:

هذه الذات مخلوقة، الله خلقها في معترك. هذه الحياة تشهد معتركاً أخلاقياً، ومن خلال هذا المعترك تكون عملية النمو والتكامل، معركة عناصر الشرّ وعناصر الخير في ذات الإنسان.

الفكر الديني يقول: أيّها الإنسان تستطيع أن تتكامل عبر نجاحك في دخول المعركة وليس الانهزام من المعركة. أحد طرفيها الشيطان

(١) الرحمن: ١ - ٣.

الـذي هـو عبـارة عـن وبـاء معنـوي يـدخل مثـل الفيـروس، وتـستطيع أن تحاربـه وتتغلّـب عليـه، الـشيطان يريـد أن يـضلّكم والله يريـد أن يهـديكم [إِنَّ الـشَّيْطانَ لَكُـمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَـدُوًّا إِنَّمـا يَـدْعُوا حِزْبَـهُ لِيَكُونُـوا مِـنْ أَصْـحابِ الـسَّعِيرِ] (1) . الحداثـة تتـصوَّر أنَّ الـذات الإنـسانية ذات دوافـع كلّهـا خيّـرة، بينمـا فـي الرؤيـة الإسـلاميّة، الـذات تـستبطن نزعـات غيـر سـليمة لا بـدَّ مـن تهذيبها [وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ] (2).

النقطة الثالثة: افتقار الذات:

الإسـلام يقـول: هـذه الـذات المخلوقـة لله لـديها افتقـار للمطلـق [يـا أَيُّهَـا النَّـاسُ أَنْـتُمُ الْفُقَـراءُ إِلَـى اللَّـهِ وَاللَّـهُ هُـوَ الْغَنِـيُّ الْحَمِيـدُ] (3). الإنـسان لـيس مطلقـاً وإنَّمـا لديـه نقـاط فقـر كثيـرة، وهنـاك فـي فطـرة الإنـسان حنـين إلـى المطلـق، الـشعور الـذاتي بالافتقـار، والفقـر إلـى الله أو الـشوق الـذاتي للقـادر علـى كـلّ شـيء، إلـى مـن هـو أعلـى منـه. هنـاك مـن يُـسيّر هـذا الوجـود ولـدى الـذات الإنسانية نزعة فطرية في اللجوء إليه.

النقطة الرابعة: عمر الذات:

الإسـلام يقـول: إنَّ عمـر الـذات الإنـسانية لـيس محـصوراً بهـذه الـدنيا وإنَّمـا هـو عمـر طويـل المـدى، أيّهـا الإنـسان أنـت إنـسان كـوني ولـيس مقطعـي. الإنـسان يمتـدّ ويـسير مـع الكـون أي بعمـر الـسماوات والأرض

---

(1) فاطر: ٦.

(2) يوسف: ٥٣.

(3) فاطر: ١٥.

[خالدينَ فيها ما دامَت السَّماواتُ وَالأَرْضُ إلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لما يُريدُ * وَأَمَّا الَّذينَ سُعدُوا فَفي الْجَنَّة خالدينَ فيها ما دامَت السَّماواتُ وَالأَرْضُ إلاّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذ](١).

وهذه نقطة قوّة كبيرة بيضاء للإسلام حينما يُقيّم الإنسان باعتباره كائناً أبدياً. الحداثة تقول: عمر الإنسان هو سنوات عمره الدنيوية ولا عليه أن يهتمّ بما هو وراء ذلك، فيما يرى الإسلام أنَّ هناك حياة أبدية يجب الإعداد والاستعداد لها [يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كادحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيه](٢).

النقطة الخامسة: ضعف الذات:

ما هو تقييم الرؤية الفلسفية الإسلاميّة لهذه الذات الإنسانية في الحياة الدنيا؟ هل هي ضعيفة تحتاج إلى من يساعدها؟ نعم، [إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً](٣).

الإنسان ضعيف دائماً يحتاج إلى إسناد في بدنه كما في الحالات النفسية وكما في اتّجاهاته الكفرية كما هو ضعيف أمام العدوّ المجهول المحيط به ألا وهو الشيطان.

النقطة السادسة: حبّ الذات:

فإنَّ الرؤية الفلسفية الإسلاميّة تقول: إنَّ حبّ الذات شيء جيّد الإنسان لا يستطيع أن يتقدَّم نحو الكمال إذا كان لا يحبّ ذاته، وإنَّ حبّ الذات غريزة

---

(١) هود: ١٠٧ و١٠٨.

(٢) انشقاق: ٦.

(٣) المعارج: ١٩ - ٢١.

ذاتية في الإنسان لا يمكن اقتلاعها[1]، وهي الأصل في تكامل الإنسان. حبّ الذات شيء إيجابي لكنَّه يحتاج إلى تهذيب، وجاء في حديث الإمام علي C : «ليس لأنفسكم ثمنٌ إلاَّ الجنّة فلا تبيعوها إلاَّ بها»[2].

وقال تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها][3]، يقول الإمام علي C : «أحيِ قلبك بالموعظة»[4]. إنَّ عمل الأديان هو التزكية والتعليم [فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً][5].

إنَّ دورَ الأنبياء هو التعليم والتزكية وليس قمع الذات واقتلاع غريزة حبّ الذات من الإنسان، بل المحافظة على هذه الغريزة وتهذيبها.

---

(١) (وحبّ الذات هو الغريزة التي لا نعرف غريزة أعمّ منها وأقدم، فكلّ الغرائز فروع هذه الغريزة وشعبها، بما فيها غريزة المعيشة. فإنَّ حبّ الإنسان ذاته - الذي يعني حبّه للذّة والسعادة لنفسه، وبغضه للألم والشقاء لذاته - هو الذي يدفع الإنسان إلى كسب معيشته، وتوفير حاجياته الغذائية والمادية... فالواقع الطبيعي الحقيقي إذن، الذي يكمن وراء الحياة الإنسانية كلّها ويوجّهها بأصابعه هو حبّ الذات، الذي نعبّر عنه بحبّ اللذّة وبغض الألم. ولا يمكن تكليف الإنسان أن يتحمَّل مختاراً مرارة الألم دون شيء من اللذة ، في سبيل أن يلتذّ الآخرون ويتنعَّموا، إلاَّ إذا سلبت منه إنسانيته، وأُعطي طبيعة جديدة لا تتعشَّق اللذّة ولا تكره الألم) راجع: فلسفتنا/ محمّد باقر الصدر: ٣٢ - ٤٠.

(٢) راجع: نهج البلاغة/ شرح محمّد عبده ٤: ١٠٥؛ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول/ محمّد بن طلحة الشافعي ١: ٢٧٩؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ ناصر مكارم الشيرازي ١: ٢٩٧، و٢٠: ٤٣٧؛ تفسير الثقلين/ الشيخ الحويزي ٢: ٢٧٢؛ التفسير الصافي/ الفيض الكاشاني ٢: ٣٨٢؛ ميزان الحكمة/ محمّد الريشهري ٢: ٨٩٨؛ بحار الأنوار/ العلاّمة المجلسي ٧٠: ١٣٢، و٧٥: ١٣؛ عيون الحكم والمواعظ/ علي بن محمّد الليثي الواسطي: ١٠٨.

(٣) الشمس: ٩ و١٠.

(٤) راجع: نهج البلاغة/ شرح محمّد عبده ٣: ٣٨؛ تحف العقول/ ابن شعبة الحرّاني: ٦٩.

(٥) طه: ١١٤.

النقطة السابعة: رعاية الذات:

الرؤية الفلسفية الإسلاميّة تقول: اعلم أيّها الإنسان أنَّك في موضع رعاية الله وليس متروكاً أو مهملاً [هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماوات وَالأَرْضَ في ستَّة أَيام ثُمَّ اسْتَوى عَلى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِل مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ][1].

فلا تستوحشوا، إنَّ لهذه الذات ربّاً يرعاها [الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدين * وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقين * وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفين * وَالَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين * وَالَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدِّين][2].

النقطة الثامنة: اجتماعية الذات:

لدينا فرد ولدينا مجتمع وهناك نظريتان:

النظرية الأولى تقول: إنَّ الوجود الحقيقي هو للأفراد وليس للمجتمع.

النظرية الثانية تقول: إنَّ للمجتمع وجود حقيقي، والمجتمع مثل الإنسان، فالإنسان له شخصية حقيقية غير مكوّناته البدنية[3]. لذا تستطيع أن تقول: إنَّ الإنسان له وجود حقيقي غير وجود البدن. وعلى هذا الأساس فإنَّ المجتمع مثل الإنسان، المجتمع وجود حقيقي والفرد هو جزء من المجتمع (جزء من هذا الكيان) إذن هذا الكيان وهو المجتمع له استحقاقات على الفرد. هنا تأتي القيم المعنوية: (الفداء، الاحترام، الكرم والتعامل مع الآخر) وغيرها من أخلاقيات.

---

(١) الحديد: ٤.

(٢) الشعراء: ٧٨ - ٨٢ .

(٣) راجع: كتاب المجتمع والتاريخ للشيخ الشهيد مرتضى المطهري حيث يناقش بتفصيل هذه النظريات.

هذه الفكرة تسمّى اجتماعية الذات.

الحداثة تقول: المجتمع وجود وهمي لا قيمة له إذا لم يحقّق أرباحاً للفرد، بينما يقول الإسلام: إنَّ (الوجود الاجتماعي) هو وجود حقيقي له استحقاقاته التي يفرضها على الإنسان، فلا بدَّ من البحث عن الانتماء الاجتماعي للفرد لأنَّ مستقبله محكوم لهذا الانتماء «أنت مع من أحببت»، وفي القيامة يحشر الناس أمماً [وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا][1].

وفي ختام هذا العرض يجدر أن نؤكّد على أنَّ مشكلة الحداثة في مجمل رؤاها وتصوّراتها بالخصوص فيما يتلَّعق بالإنسان هي التعالي على الحقيقة وعدم الاعتراف بها (الأنانية، الغرور) وتقديس الأنا وجعل الأنا هي الربّ، وهذه هي غلطة الشيطان حينما قال له الله تعالى: [ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ][2].

* * *

البحث الثاني: نقد مبدأ العقلانية

سجَّلنا أنَّ الحداثة تعتمد على مبادئ ثلاثة:

المبدأ الأوّل: مبدأ الذاتية.

المبدأ الثاني: مبدأ العقلانية.

المبدأ الثالث: مبدأ العدمية.

ولقد ناقشنا مبدأ الذاتية فيما وصلنا الآن إلى مبدأ العقلانية.

---

(1) الجاثية: ٢٨.

(٢) الأعراف: ١٢.

مداليل مبدأ العقلانية:

لنقف عند مبدأ العقلانية وماذا يقصدون بمبدأ العقلانية؟

يقصدون بمبدأ العقلانية أنَّ كلّ شيء وكلّ معلومة يجب أن تخضع إلى تفسير ولا نقبل بمعلومة لا تخضع إلى تفسير لكن هذا التفسير كما تنتظره الحداثة في مبدأ العقلانية هو عبارة عن تفسير تجريبي تفسير على الأرض وليس تفسيراً نظرياً، العقلانية الحداثية تقول: إنَّ الظواهر الطبيعية يجب أن تخضع إلى تفسير مادي، لماذا يحدث زلزال كما لماذا يحدث المطر، كما لماذا يحدث الكسوف والخسوف؟ لا بدَّ من تفسير للحوادث الطبيعية، وهكذا الإنسان، لماذا يضحك ويغضب؟ لماذا يكون كئيباً؟ لماذا يكون معقَّداً؟ طموحات الإنسان، أهداف الإنسان، غرائزه لا بدَّ أن تخضع إلى تفسير. الإنسان لديه غرائز كثيرة وبالتحليل يظهر أنَّ هذه الغرائز هي عبارة عن إفرازات هرمونية تجعل عند الإنسان شهوة طعام وشهوة منام وما شاكل ذلك، إذن فقد رجعت القضيّة إلى تفسير مادي تحليلي لظواهر الإنسان، الظواهر الطبيعية تحتاج إلى تفسير، والإنسان يحتاج إلى تفسير.

الحداثة تقول: نحن لا نقبل بشيء لا يخضع إلى عالم التجربة، الحداثة تقول: أنا لا أعتمد على نصوص مقدَّسة وإنَّما أعتمد على تحليل علمي وما تثبته التجربة على الأرض، مصدر المعرفة إذن وفق هذا المبدأ هو فقط التجربة وما تثبته التجربة.

ومبدأ العقلانية يعني إخضاع كلّ شيء في الإنسان وفي المجتمع أو في الطبيعة كما هو في البدن كما هو في النفس إخضاع كلّ شيء للتجربة.

العقلانية وعلى وفق هذا مبدأ إذن سوف لا تقدّس الخرافة، لكن

الحداثــة تطــوَّرت وتمــادت فأســقطت كــلّ معلومــة لا تثبــت بالــدليل التجريبـي. وبالتـالي فـإنَّ القـيم الدينيـة أصـبحت تتعامـل معهـا علـى أسـاس قيمتهـا التجريبيـة، فهـي تحـسب حـساب مقيـاس الـضغط أنَّ هـذا الإنـسان إذا ذهــب إلــى المــسجد وصــلّى هــل يكــون عنــده هــدوء وهــل يكــون عنــده انخفــاض فــي الــضغط النفــسي، إذن فــإنَّ الــصلاة شــيء جيّــد، أمَّــا إذا لــم يتحقَّـق لديـه راحـة نفـسية إذن يقـال: هـذا العمـل عمـل عبثـي، وقـس علـى ذلـك الـصوم ومـا شـاكل ذلـك، إخـضاع القـيم الدينيـة إلـى التجربـة وإخـضاع القيم الأخلاقية للتجربة.

هذا هو خلاصة مبدأ العقلانية الذي يعني كما قلت لكم: إخضاع كلّ شيء للتجربة وعدم قبول بشيء لا تفسير له. وحينئذٍ فإنَّ المفاهيم والمعارف الدينية مثل وجود سبع سماوات وهي معلومة قرآنية. الحداثة تقول: بالتجربة لم يثبت عندي وجود سبع سماوات إذن فلا صحَّة لهذه القضيّة. المعلومة الدينية تقول ــ مثلاً ــ: إنَّ هناك عالم ما بعد الدنيا اسمه عالم الآخرة والحداثة تقول: إنَّ هذا العالم ليس ثابتاً عندي، وأنت يمكن أن تعتقد به حتَّى ترفّه عن نفسك قليلاً لأنَّ الإنسان نفسياً يعيش بالأمل لكن ذلك لا يحوّل المعتَقد إلى حقيقة، وهكذا وجود الملائكة مثلاً فإنَّ الحداثة تقول: هل أحد منكم رأى الملائكة فكيف يمكن التصديق بهم؟

الحداثـة تقـول: لا أتعامـل مـع هـذه المعلومـات الدينيـة إلاَّ بمقـدار مـا تثبــت فــي المختبــر التجريبــي حقيقتهــا أو فائــدتها، فهــي صــحيحة طالمــا كانـت مفيـدة فـي حيـاة الإنـسان وهـي غيـر صـحيحة طالمـا لـم تخـضع للبرهـان وله تحقّق معنى على مستوى التجربة الإنسانية.

ملاحظات على مبدأ العقلانية:

وبعد هذا العرض لمبدأ العقلانية من وجهة نظر الحداثة لنعد إلى تسجيل ملاحظاتنا على هذا المبدأ.

إنَّنا نستطيع أن نناقش المبدأ في ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى: التقييم الخارجي.

الملاحظة الثانية: نقد الاصطلاح.

الملاحظة الثالثة: النقد العلمي.

إذن فإنَّ أمامنا ثلاثة محاور في الحديث:

المحور الأوّل: التقييم الخارجي:

كيف نقيّم مبدأ العقلانية؟ وما الذي أحدثه هذا المبدأ في الحياة البشرية من تحوّل أو قفزة علمية على الأرض؟

نحن نعتقد إنَّ إخضاع كلّ شيء للتجربة والبحث عن تفسير كلّ شيء في نفس الإنسان كما في الظواهر الطبيعية، وفي الظواهر الكونية كما في أعماق البحار.

البحث عن تفسير لكلّ شيء، هذا المبدأ أحدث قفزة علمية هائلة في المجتمع البشري بلا شكّ، وأوجد تحوّلاً في كشف قوانين الطبيعة وتحوّلاً في كشف الظواهر الكونية وتحوّلاً في المعلوماتية، قفزة بشرية قفزة من خلال إخضاع الأمور للتجربة، قفزة في عالم الفضاء، قفزة في عالم المعلوماتية، قفزة في عالم الصحَّة، قفزة في عالم معرفة علم النفس الإنسانية، وهكذا لا يستطيع أحد أن يكابر ويقول: إنَّ هذا الاندفاع التجريبي لدى الإنسان منذ ما يزيد عن قرنين لم يحقّق على أرض الواقع

خدمة كبيرة للبشر، لا.. هذه مكابرة فلا شكَّ أنَّ هناك خدمات كبيرة قدَّمته هذه الفلسفة وهذه الاندفاعة التجريبية، وأصبح العالم عبارة عن قرية واحدة في سرعة الاتّصالات وسرعة النقل، العالم المدن القرى تحتضن ملايين البشر وهي مجهّزة بكلّ التجهيزات الحديثة الجميلة، الزراعة وتطوّرها، الصناعة وتطوّرها، إذن هنالك إنجاز حقيقي أحدثته الفلسفة التجريبية على الأرض. نستطيع أن نقول: توجد ثورة معرفية وحتَّى لا نكون مكابرين نقول: إنَّ مبدأ العقلانية أحدث ثورة معرفية في الحياة البشرية ولكن في نفس الوقت وحتَّى نبقى مع التقييم الموضوعي هناك اتّجاه آخر ولنقل: هناك نقد في تقييم هذا المنجز الخدمي للحداثة هناك من يقدّم رؤية أخرى فيقول: إنَّه بمقدار ما قدَّمته الحداثة من منجز خدمي إنساني على الأرض لكنَّها قدَّمت المزيد من البؤس والكآبة والأمراض النفسية والحروب والمزيد من تلوّث البيئة، المزيد من يأس الإنسان، المزيد من فلسفة العبث والعبثية، البؤس الكآبة، الحياة البشرية فقدت معنى الحياة الإنسانية الجميلة... والنزعة التجريبية كما خدمت البشرية في المواصلات والاتّصالات والطبّ وما شاكل ذلك لكنَّها ورَّطت البشرية في مجاهيل أكبر ممَّا كانت عليه.

في التقييم إذن يجب أن نكوّن رؤية معتدلة فهناك إيجابيات لكن اليوم هناك عدد من فلاسفة الغرب يكتب عن بؤس الإنسان والهاوية السحيقة التي وقعت فيها الإنسانية نتيجة مبدأ العقلانية... والانتحار اليوم بلغ القمّة ويذكر كتاب جينيس للأرقام القياسية اليوم أنَّ في العالم عشرين مليون إنسان مبتلى بمرض الإيدز، وفجأةً نسمع مرض جنون البقر ونسمع مرض أنفلونزا الطيور... هذه الأمراض من أين جاءت؟

علماء الغرب يقولون: إنَّ هذه من صناعة الحداثة التي صنعت هذه الأمراض فماذا عن المجاعة العالمية؟ يوجد لدينا (٦) مليون إنسان يموت سنوياً في المجاعة بحسب إحصاءات الأمم المتَّحدة، ما معنى ذلك؟

المحور الثاني: نقد الاصطلاح:

إنَّهم يقصدون بالعقلانية إخضاع كلّ شيء للمختبر، إخضاع القيم الأخلاقية للمختبر، إخضاع الصلاة للمختبر إخضاع الكرم للمختبر إخضاع السماوات للمختبر إخضاع الملائكة للمختبر، إذن المسألة ليست عقلانية وإنَّما المسألة تجريبية فإذا أردنا أن نتحدَّث عن مبدأ الحداثة بشكل دقيق وصحيح فليس هو عقلانية، لأنَّنا سوف نكشف أنَّ الإسلام يؤمن بمبدأ العقلانية أيضاً، وإنَّما الحداثة تقصد بالعقلانية زاوية خاصّة من البحث العقلي وهي التجربة المادية فقط.

ما هو موقف الإسلام عندما يتحدَّث عن العقل؟

الإسلام يقول: إنَّ أوّل ما خلق الله العقل، العقل مقدَّس جداًّ فإذا كنّا نتحدَّث عن العقلانية فالإسلام هو أبو العقلانية ولكن ليس العقل والعقلانية هي بالضرورة التفسير التجريبي المختبري.

اذهبوا اعتمدوا التجربة واعتمدوا التحليل النظري وكلاهما صحيح، والقرآن حينما ينكر قصد إبراهيم [فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ][1]، لا يريد أن يقول: إنَّ إبراهيم كان شكّاكاً، كان كافراً، بل يقول: إنَّ إبراهيم أخضع

(١) الأنعام: ٧٨.

معلومة دينية إلى الدراسة العلمية العقلانية [فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ]. هذه طبعاً فكرة تتناسب مع المستوى البشري العامّ إنَّ إبراهيم يبحث عن الله لكن يبحث علمياً وليس خرافياً ولا موروثاً من الآباء، لاحظ العقل أيضاً «والعقل ما عبد به الرحمن»[1]. الإسلام لا يقول: اعبدوا الله تعالى بدون عقل ولكن العقل هو «ما عبد به الرحمن واكتُسِب به الجنان»، والإنسان من خلال العقل يحصل على دنياه وعلى آخرته وهكذا.

العلم ماذا يقول الإسلام فيه؟

يقول: [وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ][2]. والتجربة العلمية لها أدوات عديدة ولا توجد مساحات حرام، لا توجد منطقة تسمّى منطقة حرام.

ابحثوا حتَّى تصلوا إلى أعلى المقدَّسات الدينية وهي الله تبارك وتعالى، الإسلام يعطينا تحليلاً وصفياً، يعطينا عرضاً وصورة ويأتي الفلاسفة وعلماء الكلام يتحدَّثون عن ذلك... صفات الجلال وصفات الجمال، أسماء الله الحسنى، حتَّى هذا العالم المقدَّس ليس منطقة حرام، ليس منطقة محرَّمة. لا يوجد شيء مسكوت عنه، لا يوجد شيء يمنع الحديث فيه. لا يوجد بحث ممنوع في الشريعة، لماذا الصوم؟ لماذا الصلاة؟ لماذا الزكاة؟ لا يوجد إشكال طبعاً. اسأل لماذا خلق الله الإنسان؟ لا توجد مشكلة. لماذا نعيش مرَّة أخرى بعد الموت؟ لماذا توجد آخره؟ الإسلام دائماً يدعو إلى النظر [فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ إِلى

(١) أصول الكافي/ الكليني ١: ١١.

(٢) الإسراء: ٣٦.

طَعامِه]‌[1]، [أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً]‌[2]، [أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها]‌[3]، [وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ]‌[4]، أنظر وأسأل وأبحث، ذلك فضلُ السؤال، نفس السؤال هو فَضلٌ، لكن مشكلة الحداثة أنَّها قصرت العقل على التجربة وحدها وهذا ما يرفضه الإسلام.

المحور الثالث: النقد العلمي:

ما هو تعليقنا على الرؤية الحداثية للعقلانية؟ نحن نؤمن بالغيب، نحن نؤمن بالله والله غيب، ونؤمن بالآخرة وهي غيب، نؤمن بالوحي والوحي غيب، الإيمان بالغيب لا يخضع للدليل التجريبي إذن ما هو تعليقنا ونقدنا العلمي لمبدأ العقلانية التجريبية التي آمنت به وتدعو له الحداثة؟

نقول: هناك عدّة نقاط في نقد مبدأ العقلانية:

انتقاد الدليل العلمي.

التضاد مع المسارات العلمية للإنسان.

التضاد مع المسارات الوجدانية للإنسان.

التضاد مع حركة الرسل.

النقد الأوّل: انتقاد الدليل العلمي:

إنَّ مبدأ العقلانية أو التجريبية يعتمد على حصر عالم الوجود

---

(١) عبس: ٢٤.

(٢) النساء: ٨٢ .

(٣) محمّد: ٢٤.

(٤) يس: ٦٨.

بالمـادة، وحـصر عـالم الإنـسان بالبـدن وهـو بالأصـل لا يملـك دلـيلاً علـى هذين الأمرين:

الأوّل: حصر عالم الوجود بالمادة.

الثاني: حصر عالم الإنسان بالبدن.

مبـدأ العقلانيـة يقـول: إنَّ كـلّ شـيء يجـب إخـضاعه للتفـسير المـادي، ومعنـاه أنَّ مـساحة الوجـود هـي فقـط المـساحة الماديـة ولا يوجـد شـيء وراء المـادة، وكـذلك الإنـسان وإخـضاع كـلّ شـيء فـي الإنـسان للمختبـر المـادي معناه أنَّ الإنسان ليس إلاَّ البدن وهو مجموعة من المكوّنات المادية.

ما هو دليل مبدأ العقلانية على حصر عالم الوجود بالمادة؟

لـيس عنـدهم دليـل وهـم فـي ذلـك كالأسـماك حينمـا تحـصر عـالم الوجود بالماء لأنَّ الأسماك لم تشاهد عالم ما فوق الماء.

الحداثـة لـم تـستطع إلـى الآن أن تقـدّم دلـيلاً علـى أنَّ مـساحة الوجـود محـدودة بالمـادة، ولا دليـل علـى أنَّ مـساحة الإنـسان محـدودة بالمـادة أيـضاً، هـذه الـنفس وحركـة الـنفس، هـذا الطمـوح وحركـة الطمـوح، هـذا العقـل وحركـة العقـل، هـذه الأمـور لحـدّ الآن لـم تـستطيع الحداثـة أن تقـدّم دلـيلاً علمياً علـى ماديتهـا بـل علـى العكـس مـا زالـوا يعرفـون أنَّ القـسم الأكبـر مـن الإنـسان مـا زال مجهـولاً، القـسم الأكبـر وجـدان الإنـسان، نفـس الإنـسان، خيـالات الإنـسان، إذن لا يمكـن حـصره فـي عـالم البـدن وعـالم المكوّنـات المادية.

المبـدأ التجريبـي يجـب أن يقـدّم دلـيلاً علـى أنَّ الإنـسان محـصور فـي عـالم البـدن فقـط، بينمـا الإنـسان يجـد فـي نفـسه أنَّ دائرتـه أرحـب بكثيـر مـن دائـــرة النباتـــات ذات الحركـــة المحـــدودة والحيوانـــات ذات الحركـــة

المحدودة... الإنسان حركته أوسع بكثير ووجوده أوسع بكثير وهو قادر على أن يطل بعقله وبوجوده على كلّ الوجود الكوني.

النقد الثاني: التضاد مع المسارات العلمية لدى الإنسان:

الإنسان اليوم يعتمد مسارات علمية لكشف الحقائق فهو يستطيع كشف وجود مجرّات في عالم الفضاء من خلال مجموعة شواهد ومن خلال مجموعة أرقام نسميها أدلّة علمية وهكذا في مجال الطبّ وفي مجال الطبيعة، وكلّ هذه الكشوفات قد أُخضعت لأدلّة علمية، ونحن نستطيع أن نستخدم نفس تلك الأدلّة العلمية لاكتشاف وجود عالم ما فوق هذا العالم المادي.

الفكر الديني حينما يقول أنَّه يؤمن بوجود خالق دبَّر هذا الوجود ودبَّر هذا الكون لن يقول ذلك لقضيّة ذوقية بل على أساس المسارات العلمية نفسها التي نثبت بها الحقائق الأخرى، الفكر الديني يقول: إنَّ هذا الإنسان وهذا الوجود وهذه الطبيعة تكشف عن أنَّ هناك تدبيراً عظيماً ورائعاً يقف وراء هذه الحركة وأنَّ هذه الحركة ليست حركة عابثة إنَّما هي حركة منظّمة تكشف عن وجود إرادة عليا نظَّمتها وتلك هي التي نسمّيها إرادة الله.

إنَّ نفي الغيب هو في الحقيقة يقف بالضدّ من المسارات العلمية ودلالاتها التي تؤكّد وجود عنصر التدبير والتخطيط والهدفية في هذا الكون.

النقد الثالث: التضاد مع المسار الوجداني:

لدى الإنسان شعور وجداني عميق، ونزوع فطري راسخ نحو الارتباط بالقوّة الكبرى التي تحكم هذا الوجود، وهو سواء كان يعرفها أو لا يعرفها، يؤمن

بها أو لا يؤمن بها، إلاَّ أنَّه مدفوع ذاتياً للتعلّق بالمطلق المتعالي الذي يجد الإنسان نفسه مضطرّاً للسكون إليه والتعلّق به وبخاصّة حينما يعود إلى أعماق نفسه، وحينما تداهمه الخطوب التي لا يجد لنفسه حيلة في النجاة منها.

هذا الشعور الفطري هو ما يحاول القرآن الكريم التذكير به وإيقاظه في نفس الإنسان فيقول:

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ](١).

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ](٢).

[أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ](٣).

[أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ](٤).

[قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ](٥).

إنَّ حصر الدليل العقلي بالتجربة المادية وبالتالي نفي كلّ ما لا يخضع لها هو تقاطع كبير مع هذا الوجدان، وهو غير قادر أبداً على إماتة هذا الضمير واقتلاع هذا الإحساس من عمق الإنسان، [وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ](٦).

---

(١) الملك: ٣٠.
(٢) القصص: ٧١.
(٣) الملك: ٢٠.
(٤) الملك: ٢١.
(٥) الملك: ٢٩.
(٦) النمل: ١٤.

ولا يستطيع الفكر المادي أن يقوم بأكثر من مشاغلة الإنسان والتشويش على رؤيته وجرّه للخوض في عالم الحيرة والقلق [قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ](1).

النقد الرابع: التضاد مع ظاهرة الرسل:

نحن لو تركنا البحث عن المسارات العلمية وتركنا البحث عن المسارات الوجدانية فإنَّ كلّ الدنيا تعترف بحقيقة اسمها الرُسل والأنبياء وكلّ الشعوب تعترف بوجود ظاهرة الرسل سواء كانوا ألف أو كانوا مائة وأربعة وعشرين ألفاً، ظاهرة إبراهيم وعيسى وموسى على طول المسافة البشرية فهناك رسل قالوا: أيّها الإنسان أنت لا ترى الله... صحيح، لكن نحن نخبرك أنَّ الله هو الذي أرسلنا لك من وراء عالم الغيب [قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ](2)، أرسلنا لك ونحن لدينا البرهان ولدينا دليل وهذه رسالة الله تبارك وتعالى، وهذه معجزة، ونحن سوف لن نعتمد على قدراتنا الطبيعية، نحن نقول: أنظر كيف أنَّ الله من وراء الغيب سوف يتدخَّل ويبرهن على صدقنا من خلال المعجزة.

إنَّ حركة الأنبياء تعني أنَّ هناك مرسلاً أرسلهم، هناك وجود عظيم هو الله تبارك وتعالى أرسلهم، وأنَّ هناك أيّها الإنسان عالماً ما بعد مماتك ونحن الأنبياء رأينا ذلك العالم، هناك عالم السماوات ونحن الأنبياء رأينا عالم السموات، فما هي حجَّتكم أيّها الناس على الكفر والتكذيب [رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) إبراهيم: ١٠.

الرُّسُـلِ] (1)، فهـا هـي البيّنـة قـد قامـت عليـكم بوجـود الله مـن خـلال هـؤلاء الرسل [يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ] (2).

هؤلاء الأنبياء قالوا لشعوبهم: نحن مرسلون من قبل مُرسِلٍ وهذه رسالته.

الشعوب صدَّقوهم ورأوا منهم مشاهد إعجازية وحينئذٍ إذا لم يوجد أيّ دليل في المسارات العلمية ولا دليل في المسارات الوجدانية لكن ظاهرة الرسل تقول: إنَّ هناك عالماً آخر وراء هذا العالم المشهود ونحن لا نملك إلاَّ الإيمان بذلك العالم، مثلاً لو جاءتنا رسالة من عالم المريخ والتقطتها تلسكوبات عملاقة والرسالة تقول: (أخي الإنسان نحن كائنات في عالم المريخ نريد التعرّف عليك) لو التقطنا فرضاً مثل هذه الرسالة مرَّة ومرَّتين وعشرة وعشرين ومائة، وهي ذات مضمون واحد. فماذا يقول العلم؟ إنَّه يضطر للتصديق بتلك الحقيقة. يقول: هذه الرسالة لا بدَّ أن يكون لها مرسل، وهكذا هؤلاء الرسل يقولون: نحن نعطيك معجزة، نعطيكم رسالة وخطاباً عظيماً، الله أرسل إليكم عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى. ونلاحظ أنَّ كلمة هؤلاء الرسل واحدة في مضمونها، كما نلاحظ أنَّ هؤلاء الرسل وكلّهم أهل تضحية وصدق وإخلاص وليسوا تجّاراً مصلحيين ولا يستطيع إنسان أن يقول: إنَّهم كذّابون أو خرافيون، لأنَّ سيرتهم تقول: إنَّهم كانوا عظماء في أممهم وكلّهم أصحاب تضحية، قد خاطبوا شعوبهم بمستوى من المستويات فخضع لهم كثيرون وآمنوا لهم، وكلّهم أصحاب خطاب علمي وليس خطاباً خرافياً. هذه ظاهرة الرسل لا يستطيع المبدأ التجريبي إلاَّ أن يصدّق بها علمياً.

هذه الظاهرة تتكوَّن ممَّا يلي:

---

(1) النساء: 165.

(2) الأنعام: 130.

أوّلاً: هناك حالات متكرّرة جداًّ في دعوى الرسالة الإلهية من قبل شخصيات عديدة جداًّ.

ثانياً: مضمون رسالتهم وخطابهم واحد غير مختلف.

ثالثاً: هؤلاء الرسل كانوا في بقاع مختلفة وأزمنة مختلفة وشعوب مختلفة ولغات مختلفة وثقافات مختلفة.

رابعاً: السيرة الذاتية لهؤلاء الأشخاص تشهد بالصدق والأمانة.

خامساً: هؤلاء الأشخاص جميعاً لم يتراجعوا وبقوا صامدين ولم يتنازلوا عن دعواهم.

إنَّ هذه الأمور الخمسة إذا أخضعناها للتحليل العلمي وحساب الاحتمالات فإنَّنا سوف نجزم ونقطع أن ما ينقلوه ويتحدَّثون به هو أمر صحيح غير كاذب بما يعني أنَّ هناك حقيقة وجودية مطلقة هي التي تقف وراء هذا الكون وهي التي تدبّر أموره، وهذه الحقيقة هي الله تعالى (هو الله) وإذا أرادت العقلانية التجريبية أن تنكر عالم ما وراء المادة فإنَّها ستصطدم بدلالات هذه الظاهرة الأكيدة.

* * *

البحث الثالث: نقد مبدأ العدمية

بعد أن انتهينا من البحث في نقد مبدأ الذاتية ونقد مبدأ العقلانية نتحدَّث عن نقد المبدأ الثالث وهو مبدأ العدمية.

والمقصود من مبدأ العدمية أنَّ هذا الوجود لا عقل وراءه ولا تدبير ولا تخطيط ولا حكمة، وهذا الوجود لا غاية له ولا أهداف وهي أمور تجري بدون أهداف.

الرياح تسير بدون أهداف، الشمس تجري بدون أهداف، الأمطار تنزل بدون هدف، نعم ينتفع منها الإنسان، لكن هي بالأصل عملية ليست هادفة بحسب مبدأ العدمية. فالكون والوجود ومظاهر الوجود لاهي مظاهر عاقلة، ولاهي مظاهر هادفة، وهذا يعني عدم وجود العقل والتخطيط المقصود وراء هذا الوجود، ويعني أيضاً عدم الغائية والهدفية بل هي سلسلة تفاعلات طبيعية غير مقصودة. الأمطار تنزل بسبب اصطدام البخار بدرجة حرارية معيّنة، يؤدّي الأمر بتفاعله الكيمياوي إلى أن يتحوَّل الغاز إلى مطر، ولا شيء وراء هذا وهكذا عملية شروق الشمس، أو القمر، وهكذا حركة الكرة الأرضية، اكتشفنا أنَّ حركة الكرة الأرضية ودورانها هي عبارة عن التجاذب بينها وبين الشمس ممَّا جعلت الأرض قمراً من أقمار الشمس يدور حولها، وهكذا دوران القمر حول الأرض، وهكذا نفس حركة الإنسان، لماذا يقوم ولماذا يقعد، هكذا كلّ الوجود أيضاً تقف وراءه أسباب مادية.

إذا اكتشفنا الأسباب فلا مبرّر للقول: إنَّ هناك عقلاً وإلهاً وراء هذه الظواهر الكونية هو الذي يخطّط لها، هذا هو معنى ما تقوله الحداثة أو ما ذكرناه في توصيف الحداثة التي تحاول محو القدسية عن العالم. ليس هناك شيء اسمه مقدَّس، بل اكتشفنا أو سنكتشف له أسباباً. الإنسان يتعرَّض إلى تسلّط عمودي لحرارة الشمس فيكون لونه أسوداً، وآخرون لا يتعرَّضون لدرجة عالية من حرارة الشمس فيكون لونهم أبيضاً، وهكذا توجد قوميات قصيرة القامة، وأخرى طويلة القامة. وهذه كلّها لها أسبابها الفيزياوية والكيمياوية والوراثية. ولا ضرورة للبحث عن أسباب وأهداف وغايات مقصودة وراء كلّ ذلك. هذا هو ما سمّيناه بمبدأ (العدمية).

إذن ما هذه الظواهر الكونية؟ الظواهر عبارة عن تراكم أسباب طبيعية والسلام. كتاب يحترق، وإذا احترق يصير رماداً، وإذا صار رماداً صار خفيف الوزن، ومن ثَمَّ تأتي هبة رياح فيطير هذا الرماد، وهذا الأمر ليس وراءه غايات وقدسية معيّنة وأسرار خفيّة، بل هذه أسباب طبيعية، رياح حركت هذا الكتاب وليس هناك ملائكة نفخت فيه ورفعته في الهواء، فلماذا تبحثون عن غايات وراء هذه الظواهر الكونية؟ ليس هناك غايات وراء هذه الظواهر الكونية، ومن ثَمَّ فهم يسمّون ذلك: (العدمية) أو (العبثية).

منهجان في نقد المبدأ:

هناك منهجان في نقد هذا المبدأ:

الأوّل: المنهج الفلسفي: حيث أنَّ الفلاسفة يعتمدون على دليل الإمكان والوجوب، أو يعتمدون على دليل آخر هو الحركة والمحرّك، وهذه كلّها نسمّيها: أدلّة المنهج الفلسفي لإثبات وجود عقل وتدبير وغاية وهدف وراء سلسلة الحياة الكونية وهي عبارة عن أدلّة تخضع للتأمّل الفلسفي والتحليل العقلي.

الثاني: المنهج القرآني: وهو الذي يهمّنا في البحث هنا.. فكيف يتعامل القرآن مع شبهة العدمية، وكيف تعامل لإثبات العقل والتدبير والغائية في هذا الوجود؟

المنهج القرآني في نقد العدمية:

لقد اعتمد القرآن في هذا منهجاً آخر يمكن أن نسجّل عناوين هذا المنهج القرآني في أمرين:

الأوّل: الشواهد الكونية.

الثاني: النفس الإنسانية.

لقد اتَّبع القرآن الكريم هذين الطريقين لتذكير الإنسان وإلفات نظره وفطرته إلى وجود عقل وتدبير وحكمة وغاية وراء هذا الكون [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ](1).

وهذا هو ما يعبّر عنه الفلاسفة الإسلاميّون بالبرهان الآفاقي والبرهان الأنفُسي، من خلال النظر في الآفاق وما فيها من شواهد كونية، ثمّ النظر في النفس الإنسانية وما فيها من دلالات واتّجاهات نحو الخالق.

الطريق الأوّل: الشواهد الكونية:

القرآن الكريم يقول: تأمَّلوا في كلّ هذا الوجود فهل ستجدونه عملية تراكمية؟ كما لو أنَّ جبلاً أصابته زلزلة وتساقطت أحجاره؟ أم أنَّ هناك عقلاً بنى هذا الكون؟

يقول القرآن الكريم: [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ](2) هل تتصوَّرون أنَّكم مخلوقون عبثاً؟ فتعالوا لأعطيكم شواهد تدلّ على الغائية والعقل والهدفية وراء هذا الكون. نحن حينما نقول: الله. نعني أنَّ هناك عقلاً وتدبيراً وراء هذا الوجود، قبل أن نحدّد الشخصية والهوية الذاتية لله تبارك وتعالى، المقصود أنَّ وراء هذا الكون عقلاً وتدبيراً وإرادة، فإذا آمنّا بوجود عقل وتدبير وإرادة فهذا يعني أنَّ هناك خالقاً لهذه الوجود وليس القضيّة تراكمية ومجرَّد تداعيات مادية.

قال تعالى: [وَمَا خَلَقْنَا السَّماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * ما

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

خَلَقْناهُما إلاَّ بِالْحَقّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ][1]، وهو يعني أنَّ هناك حقّاً وقصداً وإرادة نمشي وراءها وليست هي عملية عابثة ولا هي عملية لهو. ويقول تبارك وتعالى: [لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ][2]، أي أنَّ الله تعالى يقول: لو أردنا اللهو لم أحتجّ إلى نجوم وتراب، بل كنت ألعب بعالم أكبر من هذا العالم، غير هذا العالم المادي الذي لا قيمة له أصلاً. هذا العالم المادي الذي يسحقه الإنسان بقدمه.

والقرآن الكريم يقول: [أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً][3]، أي لاحظوا أنَّنا هيّئنا لكم هذه الأرض مثل المهد... وأنتم حين تدرسون هذه الأرض بطبيعتها وحركتها فسوف ترون جمال الوصف الإلهي أنَّها مهد للإنسان.

[أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً * وَالْجِبالَ أَوْتاداً * وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً * وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً * وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً * وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً * وَجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً][4].

فالقرآن الكريم يقول لكم: التفتوا إلى هذه الخارطة فسوف تجدون هندسة مقصودة وغايات مقصودة منشودة، [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآَياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ][5]، أي للذين عندهم قلوب ويتأمَّلون. أي ستجدون الشواهد الكونية التي تدلّكم على ما وراء السطور.

---

(١) الدخان: ٣٨ و٣٩.
(٢) الأنبياء: ١٧.
(٣) النبأ: ٦.
(٤) النبأ: ٦ - ١٣.
(٥) آل عمران: ١٩٠.

القرآن يعرض مشاهد كثيرة بسيطة ومتداولة عند الناس، فيقول مثلاً: [سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى][1] أي: هذا مرعى، وهذه كائنات حيّة تهتدي إلى طريقها... من الذي هداها؟ ألا تفكّر أيّها الإنسان؟ ونحن نرى ملايين الملايين من بيوض السلحفاة تأتي هذه السلحفاة إلى الساحل وتضع بيوضها وتغطّيها بالرمل ثمّ تعود، وبعد فترة معيّنة تنتزع هذه البيوض قشرة البيضة فتخرج منها هذه السلحفاة الصغيرة، وهي لم ترَ الدنيا يوماً ما، ولم ترَ الماء، ولا تنفّست ولا رأت نوراً ولا شمساً ولا أُمّاً علّمتها، ولا أباً يسوقها، بل خرجت من تحت التراب تزحف على أقدامها، فمن علّمها أن تدفع التراب إلى جانبين ثمّ تخرج ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً ولا إلى الوراء ولا تقف تتأمّل، بل تتّجه اتّجاهاً لا يمكن أن تقول: إنّه اتّجاه أعمى، بل بهدى تتّجه مسرعة نحو الماء وساحل الماء وكلّما اقتربت منه ازدادت له عشقاً حتّى إذا وصلت إليه ألقت بنفسها في الماء. فكيف يكون هذا؟ بدون هداية خاصّة؟ القرآن الكريم يقول: [سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى] أي: خلقاً سوياً، وليس خلقاً مضطرباً، إذ لا يستطيع أحد أن يدّعي أنّ هذا الوجود وجود غير سوي، بل هذا وجود مرتّب. (سوي) يعني: (مرتّب). [وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى] أي: كلّ شيء رسم له تقديره وهدى تلك الكائنات إلى قدرها، [وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى]. فهذه المراعي كيف تنفذ جذورها تحت الأرض، وترتفع بأوراقها لتطلب نور الشمس. ولماذا لا تكون المسألة عكسية؟

---

(١) الأعلى: ١ - ٤.

وهكذا حينما يقول تعالى: [وَالشَّمْسِ وَضُحاها * وَالْقَمَرِ إذا تَلاها * وَالنَّهارِ إذا جَلاَّها * وَاللَّيْلِ إذا يَغْشاها * وَالسَّماءِ وَما بَناها * وَالأَرْضِ وَما طَحاها * وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها][1]، هذه عملية عاقلة مدبَّرة ومهندسة ومخطَّط لها.

ويستمر القرآن بهذا المنهج، وهذا منهج فيه مئات الآيات المذكّرة، لأنَّ القرآن الكريم دوره التذكير [فَذَكِّرْ إِنَّما أَنتَ مُذَكِّرٌ][2]، والذي لا يريد أن يقتنع فلا يقتنع. والأنبياء يقولون: إنَّ دورنا هو أن نذكّر الناس وهذه الشواهد أمامكم تريدون أن تقبلوا بها فأقبلوا بها، وإلاَّ لكم ما تريدون ونحن نقدّم لكم شواهد لا غير.

[وَمِنْ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ][3]، ويقول: [وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ][4]، هذا النظام الزوجي في الكون، النظام الغريب العجيب الجميل، كلّ هذا الكون بإنسانه وحيواناته ونباتاته قائم على نظام الزوجية بشكل عجيب. ولا يوجد شيء في الكون بدون زوجية. ذكر وأنثى. والقرآن الكريم يقول: انتبهوا هل هذا النظام هو نظام عبثي؟ لماذا لا يتحرَّك هذا الوجود إلاَّ عبر نظام الزوجية؟ وهذه العلاقة والأواصر بين الزوجين، من الذي جعلها؟ ومن الذي صنعها؟ ولماذا لم تكن التركيبة بشكل آخر؟ ولماذا لم تكن السياقات البشرية بشكل آخر؟ ولو كانت بشكل آخر لما بقي وجود للإنسان.

---

(١) الشمس: ١ - ٨.

(٢) الغاشية: ٢١.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) الذاريات: ٤٩.

مشاهد أخرى، هذه الطيور التي تطير انتبهوا إلى حركتها. والآن علماء الطبيعة، وعلماء الحياة يدرسون نظماً عجيبة في حركة هذه الطيور لا ندركها. مثل نظام الهجرة في الطيور التي تقطع آلاف الكيلومترات وهي لم ترَ من قبل مواطن أجدادها وآبائها ثمّ تصل إلى العش الذي كان فيه أبوها، وهكذا حركة الأسماك التي تقطع آلاف الكيلومترات لتصل إلى المياه الدافئة ثمّ ترجع مرَّة أخرى في حركة سنوية. هناك إحداثيات خاصّة لا يمكن أن تكون عبارة عن تراكم غبار وماء وحصى وما شاكل ذلك، بل هناك إحداثيات مقصودة وعقل وراءها، **[أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ]**[1]، أي: مرَّة صافاتٌ الأجنحة، ومرَّة يقبضن الأجنحة. طبعاً هناك قوانين. والقرآن يلفتنا إلى ما وراء القوانين يقول: هذه القوانين من الذي نظَّمها؟ ولماذا لا تستطيع أنت أيّها الإنسان أن تطير؟ وهذا النسر مثلاً، والصقور على قمم الجبل. والصقر وهو صغير يبدأ يرف جناحه ثمّ يلقي بنفسه من فوق بعدما يكبر قليلاً فإذا هو يطير على مدى مئات الأمتار هو يطير: فلو أراد الإنسان أن يفعل فعله ماذا ينتج؟... الإنسان نظَّمه الله تعالى بشكل آخر؟ والصقور والنسور بشكل آخر، والأسماك والحيتان نظَّمها بشكل آخر.

يستمر القرآن الكريم ويقول: **[وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ]**[2]. الله تبارك وتعالى سخر

(١) الملك: ١٩.

(٢) الرحمن: ٧ - ١١.

لكم هذه الأرض وما فيها هل تتصوَّرون أنَّ هذه القضيّة صارت بلا قصد ولا حكمة؟ أنتم في حياتكم البسيطة لا تقبلوا ولا واحد في الألف من هذه النماذج بدون حكمة وغائية وعقل، فكيف تقبلون بالعبثية والعدمية واللاإرادية واللاغائية، وكيف تقبلونها بحركات مهندسة ومخطّطة بأضعاف أضعاف تخطيطكم لكتاب أو جملة أنتم تكتبونها! لو قرأت بيتاً من الشِعر على شاعر من الشعراء سوف يقول لك: هذا البيت لبدر شاكر السيّاب مثلاً. لأنَّه يعرف السيّاب وإنَّ لديه نغمة معيّنة، وتقرأ بيتاً آخر فيقول لك: هذا للجواهري، أو آخر فيقول لك: هذا بيت المتنبّي، أو المعرّي. فكلّ واحد له أسلوب خاصّ وهندسة خاصّة. وهو مجرَّد شعر وترتيب كلمات... أمَّا اختلاف الليل والنهار وحركة الرياح والنظام العجيب في هذا الوجود... هذا كلّه هل يمكن أن يكون بدون عملية واعية؟ [أَفَلا تَعْقِلُونَ]؟

سبب الغرور الحداثي:

وهنا يجب أن نقدِّم تعليقاً على الحداثة التي أصابها شيء من الغرور. ما هو سبب هذا الغرور؟

إنَّهم اكتشفوا الأسباب قالوا: أمطرت السماء نتيجة لتغيّرات حرارية معيّنة ونحن اكتشفنا ذلك. وهكذا في الصاعقة والرعد، والبرق، فقد كانوا في السابق يقولون: إنَّ الرعد هو سيف جبرائيل وغضب الربّ، ولكنَّنا الآن بعد أن اكتشفنا ما هو الرعد وما هو البرق فسوف لا نحتاج لتفسير غيبي. هنا تصوَّرت الحداثة أنَّها حين اكتشفت الأسباب إذن لا

غاية ولا عقل ولا تدبير. وهنا كانت المغالطة... لأنَّ القرآن الكريم يقول: إنَّني لا أنفي وجود الأسباب الطبيعية وراء الحوادث الكونية بقوله: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ](١) أي: إنَّ كلّ ما في الكون يخضع لأسباب. لكن ما وراء الأسباب والسطور... ما هو؟ يمكن أنَّك عرفت الجملة وإعرابها ومعناها لكن هل هناك أحد وراء إنشاء هذه الجملة أم لا؟ ومعرفتك بالجملة لا يعني أنَّه ليس هناك أحد قد أنشأ الجملة، ولقد استطاعت الحداثة أن تعرف بعض الأسباب، وهي أسباب بسيطة فأصابها الغرور وقالت: لا داعي للاعتقاد بوجود غايات وتدبير. والحقيقة أنَّ اكتشاف الأسباب لا يعني إلغاء وجود عقل وراء تلك الأسباب. فأنت جئت من أبوين هذا صحيح، لكن هذا لا يعني أنَّك مولود أعمى وأنَّ حركة التناسل التي حفظت البشرية إلى الآن هي عبارة عن قانون أعمى يسير وحده وليس قانون هدىً مرسوم من قبل خالق حكيم.

نحن متّفقون على أنَّ المولود لا يولد إلاَّ من أبوين لكن الفرق بين الإسلام وبين الحداثة المادية أنَّ الحداثة المادية تقول: لا شيء وراء عملية التناسل، والإسلام يقول: ما وراء الأبوين يوجد قانون هو الذي حفظ الحياة البشرية والتناسل وحركة الإنسان إلى أن يولد. هناك قانون هو الذي أنتج في النهاية أولادك وبناتك. إذن هناك مئات من القوانين سبقت حدوث الظواهر الطبيعية، هذه القوانين لها مهندس وليست فوضى، ولو كانت فوضى لما أمكن ضبطها اليوم. إنَّ مؤسسات الأنواء الجوّية في كلّ العالم تستطيع أن تخبرك غداً أو بعد عشر ساعات سوف

---

(١) القمر: ٤٩.

يكـون الجوّ ممطـراً أو نـصف مـشمس أو مـا شـاكل ذلـك. إذن هـم يعرفـون ذلـك. ولكـن مـن وَضَـع هـذه القـوانين؟ إنَّ القـرآن الكـريم يلفتنـا إلـى مـا وراء هذه الظواهر الكونية من عملية واعية وحكيمة.

الطريق الثاني: النفس الإنسانية:

القـرآن الكـريم يقـول: إنَّ التـدبُّر فـي الـنفس الإنـسانية والتأمّـل فيهـا يكـشف عـن وجـود غائيـة فـي خلـق الإنـسان، هنـاك هـدف، وقـصد، وهندسـة، وتـدبير، وهـذا مـا يمكـن أن نـسمّيه دليـل المراجعـة الوجدانيـة. أو دليـل الـنفس الإنـسانية التـي يقـول فيهـا القـرآن الكـريم: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ][1] وهـي الـشواهد الكونيـة، [وَفِي أَنفُسِهِمْ] وهـذا هـو دليـل المراجعـة الوجدانية [حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ].

فالإنـسان حـين يتأمَّـل نفـسه يجـد أنَّ القـضيّة ليـست عابثـة، ولهـذه النفـوس الإنـسانية طموحـات كبيـرة. طمـوح نحـو الحيـاة الأبديـة، فمـن أيـن جـاء هـذا الطمـوح نحـو الحيـاة الأبديـة؟ هـذه الـنفس الإنـسانية تمـشي علـى نظـام يـوفّر لهـا الحيـاة الاجتماعيـة، نظـام الحـبّ والكـره والرغبـة وحـبّ التفـوّق وحـبّ الاكتـشاف والخـوف مـن المجهـول والخـوف مـن العـدوّ، مجموعـة نزعـات وتأشـيرات، والإنـسان بـدون هـذه التأشـيرات يـرتطم بالحجـارة أو يمـوت. أي هنـاك تأشـيرات هندسـية يمـشي عليهـا الإنـسان فـي نفسه، ولـولا آلاف مـن هـذه التأشـيرات، لـم تجلـسوا ولـم تدرسـوا ولا سـوى ذلـك. الآن تـدرس، فلمـاذا تـدرس؟ إمَّـا حبّـاً فـي اكتـشاف المجاهيـل أو حبّـاً

(١) فصلت: ٥٣.

فـي المـستقبل أو حبّـاً فـي التفـوّق والبـروز، وهـذه النزعـات بمجموعهـا دعتـك إلـى أن تجلـس وتـدرس، وجعلـت ديمومـة للحركـة العلميـة علـى طـول تـاريخ البـشرية، وهكـذا أنـت تلبس و تأكـل وتنـام، ولـديك طموحـات كثيـرة. والطمـوح نحـو الأبديـة هـو أنَّـك دائمـاً تتسـاءل: مـاذا بعـد الحيـاة؟ هـذه النغمـة الخاصّـة فـي نفـس الإنـسان. وحـبّ البقـاء ولا يوجـد أحـد لا يحـبّ البقـاء، بـل إنَّ كـلّ أحـد يريـد أن يبقـى فـي الـدنيا أو يبقـى فـي الآخـرة. فالإنـسان لديـه طمـوح ولا يقتنـع بخمـسين سـنة أو ستّين سـنة، القـرآن يقـول: إنَّ التأمّـل فـي الـنفس الإنـسانية يكـشف لكـم أنَّ هنـاك عمليـة حـقّ وعمليـة هندسـة صـحيحة مرسـومة ولهـذا يـأتي التأكيـد القرآنـي باسـتمرار علـى مراجعـة الـنفس الإنـسانية، يقـول: [لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ][1].

هـذه الـنفس ذات شـأن ودلالـة كبيـرة [أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ] أي: ليراجـع نفـسه، الإنـسان لا يقبـل لنفـسه أن يرتّـب بيتـه ثـمّ بعـد أسـبوع يخـرب هـذا البيـت، أو أن يؤلّـف كتابـاً ثـمّ يتلفـه، أو أن يخـيط رداءً ثـمّ يمزّقـه، الإنـسان لا يقبـل لنفـسه العبثيـة، فكيـف يقبـل لهـذا الوجـود العظـيم أن يكون عابثاً مثل لعب الأطفال.

[بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ][2]، أي هذا الإصبع الذي لا يتكرَّر مثله في جميع البشر، حتَّى أنَّ كلّ المحاكم القضائية في العالم تعتمد بصمة الإبهام لأنَّه لا يشترك في هذه البصمة أحد آخر، بل هو واحد فقط.

---

(١) القيامة: ١ - ٣.

(٢) القيامة: ٤.

إنَّ التأمل في النفس الإنسانية _ وهو أمر متوفّر ومتعدّد لكلّ أحد _ يكفي في التدليل على أنَّ العقلانية لا يمكن حصرها في عالم الحسّ والتجربة، فالنفس الإنسانية وهي أقرب ما تكون للإنسان مؤشّر على أنَّ هناك عالم أرحب يستطيع الإنسان أن يصل إليه ويتعرَّف عليه كلَّما غاص في أعماق نفسه وتعرَّف على مجاهيلها.

وربَّما إلى ذلك كان يشير الحديث النبوي الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[1].

* * *

(1) بحار الأنوار/ العلاّمة المجلسي ٢: ٣٢/ ح ٢٢.

الفصل الرابع:

الأسس

العلمية للحداثة

الحداثة كفلسفة معاصرة مسؤولة عن تقديم الدليل العلمي على صدقها وصحَّتها، وهي تؤمن وتعتمد على مجموعة مبادئ تسمّى مبادئ الحداثة، هي:

الأوّل: الذاتية.

الثاني: العقلانية.

الثالث: العدمية.

وهي كأيّة نظرية تحتاج إلى أساس علمي ولا يصحّ أن تكتفي بطرح القضايا بدون أُسس علمية، لكن لحدّ الآن لم تكتمل الصورة. فإنَّ علماء الحداثة لم يستطيعوا أن يُقدّموا أُسساً علمية للمبادئ أعلاه.

ربَّما تحسن الحداثة إثارة الشكوك على الطرف الآخر من مثل: ما هو الدليل؟ من قال ذلك؟ ولماذا؟

لكن هذا غير كافٍ في البحث العلمي، فكلّ نظرية يجب أن تدعم بدليلها العلمي أو الفلسفي، وبدون استدلال تتحوَّل إلى مجرَّد شكّ.

مثلما أنَّ الإيمان مسؤول عن تقديم الدليل، الكفر أيضاً مسؤول عن تقديم الدليل، لكن المعروف اليوم أنَّ المؤمن يجب أن يقدّم الدليل والكافر معفي عن تقديم الدليل، ولكن هذا غير صحيح.

الحداثة لم تقدّم دليلاً علمياً، وأكثر ما كتبوه هو عبارة عن تشكيك في النظرية الأخرى، هؤلاء ربَّما لم يحسنوا طريقة عرض الاستدلالات وإنَّما طرحوها بطريقة مبهمة.

نحن اليوم نعمل على أن نستعين من هنا وهناك بمجموعة

كلماتهم المتناثرة ونبحث عن مجمل ما كُتبَ عن الحداثة ونقدّم الأدلّة على الفردانية والعقلانية والعدمية، ونبحث عن الأُسس العلمية ونقدّم عرضاً لأهمّ ما يمكن للحداثة أن تستدلّ به.

الدليل الأوّل: استحالة المعرفة الموضوعية:

فالمعرفة كلّها ذاتية طالما كانت متأثّرة بذات الإنسان العارف واحد وأحواله، والمعرفة الذاتية هي معرفة نسبية غير متطابقة بشكل تامّ مع الواقع الخارجي.

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّ المعرفة على مستويين، معرفة موضوعية ومعرفة ذاتية. والمعرفة الموضوعية هي معرفة مطلقة والمعرفة الذاتية هي معرفة نسبية(١).

(١) إنَّ أصحاب منهج اليقين يتّفقون على أنَّ قسماً عظيماً من إدراكات الإنسان وعلومه تطابق الواقع، وأنَّ الفكر الإنساني إذا حاز النظم المنطقي، يصل إلى حقائق غير قابلة للإنكار، يدركها الإنسان جزماً. غير أنَّهم بعد هذا الاتّفاق، افترقوا إلى طائفتين:

١ - الموضوعية المطلقة: تقول هذه الطائفة: إنَّ الذهن يدرك الأشياء الخارجية في ظلّ أدواته على ما هي عليه، من دون أن يكون للفكر والذهن أو الحسّ تأثير في الصورة العلمية، بل هي على وضع لو قُلبت إلى الخارج، تكون نفسه، كما أنَّ الخارج لو جُرّد عن ثوب الخارجية، لكان نفس الصورة الذهنية. وبعبارة ثانية: إنَّ هاهنا واقعية خارجية تظهر بوجودين: أحدهما الوجود الخارجي الذي له آثاره، وثانيهما الوجود الذهني. وهو يتّحد مع الخارج ماهية، غير أنَّه لا يترتّب عليه أثره. فالموجود الخارجي والذهني يتّحدان ماهية، ويختلفان وجوداً، فإنَّ الوجود الخارجي له آثار، والوجود الذهني له آثار أخرى، مع اتّفاقهما في الماهية. وهذا هو الرأي الموروث من أرسطو والفلاسفة الإسلاميّين مشّائييهم وإشراقييهم.

وبعبارة ثالثة: إنَّه ليس للعلم حقيقة سوى كونه مُظهراً للواقع بلا تأثير من الذهن في الإظهار والإراءة. وأمَّا الموارد التي يكون للذهن والحسّ تأثير في تبلور الخارج في الذهن كما في المبتلى بالصفرة، فهو موارد استثنائية يقف عليها الإنسان بالتأمّل والتدبّر. ولأجل ذلك لا يؤثّر في سائر إدراكاته كالسمع والبصر. \

]

هذه نظرية أصحاب الموضوعية المطلقة، فهم يقولون بالجزم واليقين في مقابل السوفسطائيين والشكّاكين، وبالموضوعية والواقعية المطلقة في الإدراك، مقابل الطائفة التالية.

٢ - النسبية: في النسبية اتّجاهان: أحدهما - وهو الأساس - الاتّجاه النسبي الفلسفي، والثاني هو الاتّجاه النسبي العلمي.

(أ - النسبية الفلسفية): أصحاب هذه الطائفة لا يعترفون بإراءة العلم للواقع مائة بالمائة، وإنَّما يقولون بأنَّ ما يدركه الإنسان من الخارج ليس حقيقة خالصة من الشوائب، بل مزيج من الناحية الموضوعية للشيء (الخارج) والناحية الذاتية للفكر المدرك، فلا يمكن أن تُفصل الحقيقة الموضوعية في التفكير، عن الناحية الذاتية للفكر وتبدو عارية عن كلّ إضافة. ويزعمون أنَّ هناك عاملين رئيسيين يشتركان في إخراج الصورة الذهنية عن الإطلاق، وتشويشها بالشوائب، هما: الظروف الزمانية والمكانية المحيطة بالمدرك والجهاز العصبي. وتصبح العلوم الإنسانية مفردها ومركّبها، تصوّرها وتصديقها، معرفة نسبية، تحكي عن الواقع حكاية ما، لا حكاية مطلقة. ولذا لو طرأ تغيّر ما في الجهاز أو الظروف الحاكمة عليه، لانعكست الحقيقة على تلك المدارك، بغير ما كانت عليه. هذه حقيقة النسبية الفلسفية، وأصحابها وإن كانوا يحملون شعار الحقيقة، ولكنَّه مجرَّد شعار لا حقيقة وراءه، وما هو إلاَّ صورة أخرى عن مذهب الشكّ تستسيغها أذهان أبناء العصر. فأنصار الشكّ الحديث يُسدلون شعار الحقيقة والمعرفة الجزمية، غطاءً على الشكّ المغمور تحت هذا الشعار، بينما أنصار الشكّ القديم يتجاهرون بما يتبنَّونه بلا ستر وغطاء.

(ب - النسبية العلمية): هناك اتّجاه آخر يقابل النسبية الفلسفية معروف بالنسبية العلمية أو نسبة الحركة والثقل. وهذه النظرية موروثة من غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م)، ونيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م). وهي خارجة عن مجال البحث لأنَّ كون الشيء بوجوده الواقعي أمراً إضافياً ونسبياً فلا ننكره ولا نبحث عنه. وذلك مثل مقولة الإضافة، كالأبوّة والبنوّة، فإنَّ واقعيتها واقعية إضافية نسبية، فليس للأبوّة والبنوّة مفهوم مطلق عند التطبيق على الخارج (لا عند التصوّر).

باختصار من كتاب: نظرية المعرفة، مدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات، محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر سبحاني بقلم الشيخ حسن محمّد مكّي العاملي: ١٠٩ - ١١٧.

المعرفـة الموضـوعية هـي معرفـة متطابقـة مـع الموضـوع الخـارجي وتمثّـل انعكاسـاً حقيقيـاً لـه. حينمـا نقـول: الـشمس كرويـة والأرض كرويـة، فهنـاك موضـوع خـارجي هـو الـشمس أو الأرض وإنَّ الـشمس كرويـة أو الأرض وهـي كرويـة فـي واقعهـا، فهـذه المعرفـة هـي معرفـة موضـوعية ولـيس معرفـة ذاتيـة. مـن أجـل أن تكـون المعرفـة موضـوعية يجـب أن تكـون متطابقـة مـع الواقـع الخـارجي. أمَّـا إذا لـم تتطـابق مـع الواقـع الخـارجي وإنَّمـا كانـت متـأثّرة بالـذات فإنَّهـا سـتكون معرفـة ذاتيـة تحكـي الواقـع النفـسي للإنـسان العـارف ولـيس الواقـع الخـارجي للموضـوع المعـروف كالـذي يلبس نظارات سوداء فإنَّه يرى كلّ شيء أمامه أسوداً.

هـذه المعرفـة هي معرفـة ذاتيـة وليـست موضـوعية، أي هـي نظـرة للواقـع بحسب نظاراتنا وحسب طبيعة مقاساتنا الإدراكية، وإملاء مقاساتنا لا ينتج معرفة موضوعية، وهنا تقول الحداثة: إنَّ المعرفـة الموضوعية المطلقـة (المتطابقـة مع الموضوع الخارجي مائة بالمائة) مستحيلة. والمعرفة الموجودة لدينا هي دائماً معرفة نسبية قد تتطابق (٦٠%) أو (80%) مع الواقع الخارجي.

ولكن ما هو الدليل على ذلك؟

الدليل يتألَّف من مقدّمتين حتَّى نصل إلى النتيجة:

المقدّمة الأولى: ذات الإنسان هي وعاء المعرفة.

المقدّمة الثانية: إنَّ المعرفة تتلوَّن بلون الوعاء.

ولتوضـيح ذلـك نقـول: هنـاك موضـوعات خارجيـة (سـماء، أرض، شـجر) والمعرفـة هـي واقـع ذهنـي لـيس لـه علاقـة بـالواقع الخـارجي بـل هـو مفـصول عنـه ونحـن نمـارس لـدى عمليـة الإدراك والمعرفـة قـضيّة ذاتيـة، كما أنَّ الواقع الخارجي لا يتأثَّر برؤيتنا الذاتية.

الإنسان يرى القمر قريباً جدّاً من الأرض، ولكن هذه الرؤية بسيطة، أمَّا الرؤية العلمية فتقول: إنَّ القمر يبعد عن الأرض بحوالي سبعمائة ألف كيلو متر مثلاً، لكن هذه المسافة الخارجية انعكست على وعاء الذهن، وفهمها بطبيعة المقاسات التي يعتمدها.

وهكذا حينما نتصوَّر النار، فإنَّ الوجود الذهني للنار وليس الوجود الواقعي هو الذي قد عرفناه وتصوَّرناه ، أمَّا الواقع الخارجي فإنَّه قد يتطابق وقد لا يتطابق معه.

إذن المقدّمة الأولى هي أنَّ الذات الإنسانية هي وعاء المعرفة، وهي تأخذ من البحر بمقدار ما يتحمَّله هذا الوعاء من ماء.

والإدراك[1] يعني حضور صورة الأشياء عند الذهن وهذه الصورة قد لا تتطابق مع الواقع الموضوعي الخارجي لأنَّ كلّ معرفة متأثّرة بلون الوعاء الذي يحملها وهو الذات الإنسانية الأنا، فهذا يعني أنَّه لا يوجد شيء موضوعي مطلق. لأنَّنا دائماً نلبس نظارات ذاتية، والنتيجة ستكون أنَّ كلّ معرفة هي معرفة ذاتية نسبية، وفي ضوء هذا الاستدلال تؤكّد الحداثة على نظريتها في رفض أيّة معلومة لا تمرّ عبر قناعة الإنسان المباشرة، ولا تخضع لأدوات الإدراك الحسّي البشري، كما تؤكّد رفضها لأيّة غائية في هذا الكون طالما لا تقع تلك الغاية في مدى حواسنا وإدراكاتنا.

---

(١) يعرّف الشيخ مصباح اليزدي العلم بأنَّه: (حضور صورة ذات الشيء أو صورته الجزئية أو مفهومه الكلّي لدى موجود مجرَّد)، راجع: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة/ محمّد تقي مصباح اليزدي ١: ١٥٣. ويعد هذا التعريف - على حدّ قول حسن إبراهيميان - من أدقّ التعاريف، وهو تعريف شامل للعلمين (الحصولي والحضوري) وشامل أيضاً لأقسام المعقولات والمفاهيم. راجع: نظرية المعرفة/ السيّد حسن إبراهيميان: ٣٩.

الدليل الثاني: سقوط الأدوات الأخرى لليقين[(١)]:

يجب أن نميّز بين ما هو يقين وما هو احتمال. فكلّ معلومة لم تصل إلى درجة اليقين تسمّى قضيّة احتمالية. ومرحلة اليقين تعني إنهاء جميع الاحتمالات المخالفة وعلى جميع المستويات. والقضيّة تكون يقينية إذا مسحت كلّ احتمالات الرأي الآخر. وإلى هنا فإنَّ الفكرة واضحة، لكن الحداثة تضيف إلى ذلك فتقول: إنَّه للتأكّد من صحَّة أيّة معلومة يجب أن تثبت تلك المعلومة بالدليل التحليلي العلمي المختبري لا بالتأمّل الفلسفي المجرَّد. والنتيجة التي تصل إليها الحداثة أنَّ جميع الأدلّة الفلسفية غير الخاضعة للحسّ والتجربة هي أدلّة احتمالية.

---

(١) العلم في قبال الظنّ والشكّ يساوي اليقين. واليقين هو الجزم بثبوت المحمول للموضوع. والجزم بامتناع سلب المحمول من الموضوع، وعدم إمكانية زوال الجزم الأوّل والثاني. وعلى هذا، فهناك أربعة شروط في اليقين، وبهذه الشروط الأربعة، تخرج الظنون المتراكمة وكذلك الجهل المركَّب، من تعريف اليقين، لأنَّهما يقبلان الزوال، ومع أنَّ الجاهل بالجهل المركَّب لديه جزم بثبوت الموضوع للمحمول وجزم بامتناع سلب المحمول من الموضوع، إلاَّ أنَّ كلا هذين الجزمين، يزولان بالشبهة أو بالبرهان الذي يقام على عكسهما، أمَّا اليقين الجزمي فهو غير قابل للزوال. ويذكر القران الكريم، الضرورة التي هي حصيلة الشروط الأربعة لليقين، بعبارات مثل: [لا رَيْبَ فِيه] وأمثالها، ومن ذلك قول الله تعالى: [ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ] (البقرة: ٢). راجع: نظرية المعرفة في القران الكريم/الشيخ جوادي آملي: ١٢٥.

يبتني منهج اليقين على أصلين:

الأوّل: إنَّ وراء الذهن والذهنيات واقعيات خارجية.

الثاني: إنَّ كلّ إنسان قادر - بحسب ما جهّز به من أدوات المعرفة - على دركها والتعرّف عليها تعرّفاً صحيحاً.

راجع: نظرية المعرفة، مدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات، محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر سبحاني بقلم الشيخ حسن محمّد مكي العاملي: ٧٥.

الحداثة تقول: حتَّى تكون المعرفة يقينية يجب أن يكون لدينا دليل علمي عليها، وكلّ معلومة لا تخضع للدليل العلمي لا تكون يقينية، وعلى هذا الأساس لا صحَّة لأيّة معلومة غير خاضعة للاختبار العلمي، ونستطيع أن نضع ذلك على شكل برهان منطقي(١) لنظرية الحداثة يتألَّف من:

المقدّمة الأولى: صحَّة أيّة معلومة تحتاج إلى دليل يقيني.

المقدّمة الثانية: لا دليل يقيني غير الدليل العلمي.

النتيجة: كلّ معلومة لا تخضع للدليل العلمي فهي ليست يقينية.

مثلاً حين نقول: إنَّ هناك مجموعة أرواح في هذه القاعة وأنا لا

---

(١) البرهان: لغة: بيان الحجّة وإيضاحها، قال تعالى: [بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ] (القصص: ٣٢)، أي حجّتان واضحتان عند الله. اصطلاحاً: استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلّمة إلى أخرى تنتج عنها ضرورة، وعدّه المناطقة القدامى أسمى صور الاستدلال، لأنَّه يقوم على أساس مقدّمات يقينية وينتهي تبعاً لذلك إلى نتائج يقينية. وقال ابن سينا: إنَّ البرهان قياس مؤلَّف من يقينيات لإنتاج يقيني. والقدماء لا يطلقون لفظ البرهان إلاَّ على الاستنتاج العقلي، أمَّا المحدثون فيطلقون هذا اللفظ على الحجّة العقلية والحجّة التجريبية معاً. وأكمل أشكال البرهان: البرهان الرياضي، لأنَّه استنتاج مؤلَّف من يقينيات لإنتاج يقيني. باختصار من معجم مصطلحات المنطق (عربي - انكليزي - فرنسي)، السيّد جعفر الحسيني: ٥٢ - ٥٤.

والطرق العلمية للاستدلال - عدا طريق الاستدلال المباشر - ثلاثة أنواع رئيسية:

١ - القياس: وهو أن يستخدم الذهن القواعد العامّة المسلَّم بصحَّتها في الانتقال إلى مطلوبه.

٢ - التمثيل: وهو أن ينتقل الذهن من حكم أحد الشيئين إلى الحكم على الآخر لجهة مشتركة بينهما.

٣ - الاستقراء: وهو أن يدرس الذهن عدّة جزئيات، فيستنبط منها حكماً عامّاً. راجع: منطق المظفر ٢: ١٨٨.

والاستدلال هنا من نوع القياس الذي يتألَّف من مقدّمتين. وفيما يخصّ اصطلاحات وأقسام القياس راجع الجزء الثاني من منطق المظفر.

أستطيع التأكّد من هذه المعلومة عبر دليل علمي، حينئذٍ تفقد المعلومة قيمتها العلمية. وهكذا ستسقط كلّ الخرافات وكلّ عالم الميتافيزيقيا، وعندئذٍ تقول الحداثة: لا للخرافة لا للدين لا للقيم الأخلاقية، وعندها سيصبح مبدأ الفردانية والعقلانية والعدمية وفقاً لهذا الاستدلال هو المبدأ الصحيح.

الدليل الثالث: مبدأ العلّية:

وهو مبدأ قويّ واضح وهو يعني أنَّ لكلّ شيء علّة، لأنَّ كلّ ما في الوجود يتحرَّك عبر أسباب تقف وراءه.

هذا من ناحية فلسفية، ومن ناحية أخرى فإنَّ الإنسان وجدانياً بطبيعته مدفوع للبحث عن علّة، ولا يرضى الوجدان الإنساني بأن تنقطع سلسلة المعلولات، وأن لا يتساءل لماذا حدث هذا؟ لذلك فإنَّ مبدأ العلّية هو بداهة فلسفية كما هو حاجة وجدانية.

الحداثة تطلب البحث عن علل الأشياء، وتقول: لا بدَّ من اكتشاف علل طبيعية مادية قابلة للاختبار وراء كلّ حدث، ولا يصحّ التسليم للمجهول أو الخرافة أو للغيب أو لما وراء الطبيعة. فالأعاصير مثلاً بواسطة تقدّم العلم تمَّ اكتشاف أسبابها وهي تحدث نتيجة لاختلاف في الضغط الجوّي، ونتيجة لمبدأ العلّية سقطت الأسطورة والخرافة في تفسير الأعصار ولم يعد شخصاً يفكّر فيها.

كذلك الأمراض التي تصيب الإنسان فإنَّ لها أسباباً مختلفة. الإنسان قد يصاب بالجنون أو الكآبة وهنا تأتي الأسطورة والخرافة فتقول: إنَّ الجنّ قد دخل في رأسه، ولكن العلم يرفض هذا التفسير،

ويعطي أسباب المرض، فالكآبة مثلاً هي نتيجة لتراكمات ضغوط نفسية. وفي معالجة الكآبة لا نحتاج لاكتشاف أسباب طرد الجنّ، بل العلاج النفسي قادر على تحقيق الشفاء نسبياً. فالحداثة ترفض البحث عن عوامل ما وراء الطبيعة، فالبرق والرعد يتكوَّن نتيجة لاختلاف الشحنات الكهربائية وليس لأسباب أخرى، وهكذا الرياح السوداء العاتية، وهكذا كانت أمواج (تسونامي) التي دمَّرت وقتلت أكثر من (250) ألف إنسان في ساعة واحدة عام (2004م) في أكثر من عشر دول مطلّة على المحيط الهندي.

الحداثة لا تقبل تفسيرها بأنَّها ناتجة عن غضب إلهي. الحداثة ترفض هذا التفسير وتقول: إنَّها حدثت نتيجة زلزال عظيم في عمق المحيط أدّى إلى وصول الأمواج العاتية إلى الساحل. ووفقاً لهذا الفهم فإنَّ الحداثة تؤسّس مبدأ العقلانية الذي يعني إخضاع الأحداث للتحليل العلمي الذي يقبله العقل ويكتشفه ويرفض ما سواه.

الحداثة تقول: إنَّ التفسيرات الدينية هي الأخرى غير مقبولة، وإذا كانت هناك أفكار دينية صحيحة فإنَّ بالإمكان أن نكتشف أسبابها الطبيعية وليس أسبابها الغيبية.

فمثلاً الدين يقول: إنَّ الصدقة تدفع سبعين نوعاً من البلاء[1] وإنَّ صدقة السرّ تدفع ميتة السوء[2]. الحداثة تقول: يمكنني أن أُقدّم تحليلاً

---

(١) عن الإمام الصادق C قال: «صدقة العلانية تدفع سبعين نوعاً من البلاء وصدقة السرّ تطفئ غضب الربّ»، ثواب الأعمال/ الصدوق: ١٤٣.

(٢) عن الإمام الصادق C قال: «الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء»، ثواب الأعمال: ١٤٣.

علمياً لأثر الصدقة، لأنَّها سوف تكوّن محيطاً اجتماعياً إيجابياً للإنسان المتصدّق، وبالتالي يقلُّ الخصوم، لذا فإنَّ الصدقة تدفع مناشئ العداء، لذلك فهي تبعد عنك ميتة السوء وهذا تحليل طبيعي، ولا حاجة لتحليل ما وراء طبيعي، يعتبر أنَّ هذا يمثّل إرادة إلهية غيبية. وهكذا بالنسبة لصلة الرحم فهي تطيل العمر[1] حسب الفكر الديني، والحداثة تفسّر ذلك تفسيراً مادياً لأنَّ صلة الرحم توفّر راحة نفسية، وتعمل على توطيد العلاقات، لذلك يطول عمر الإنسان.

فالحداثة دائماً تعمل على إلغاء الغيب، إلغاء ما وراء الطبيعة وتبحث عن أسباب طبيعية مادية وراء كلّ حادثة. وبهذا الشرح فإنَّ الحداثة تقول باهتزاز منظومة الفكر الغيبي، فكثيراً ممَّا كان يفسّر بعوامل غيبية فُسّرَ بأسباب طبيعية. لذلك أصبح العلم قادراً على أن يجيب على السؤال (لماذا) في تفسير الأحداث الكونية.

الدليل الرابع: نظرية أصالة الإنسان:

نظرية أصالة الإنسان تعني أنَّ الإنسان هو مصدر الثبوت[2] ومصدر الإلزام[3].

---

(١) عن الإمام الصادق C قال: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمّران الديار ويزيدان في الأعمار»، أصول الكافي/ الكليني ٢: ١٥٢.

(٢) الثبوت: الجعل، وهي مرحلة من الحكم تسبق مرحلة الإثبات وإبراز الحكم بصيغة من الصيغ، وقولهم: مقام الثبوت يعني مقام الجعل. معجم مفردات أصول الفقه المقارن (معجم ثنائي اللغة عربي - انكليزي)/ تحسين البدري: ١٢٠.

(٣) الإلزام: الفرض والإرغام. وإلزام المكلَّف بالتكليف: فرضه عليه. معجم مفردات أصول الفقه المقارن: ٨١ .

وللتوضيح نقول: هناك مجالان في هذا الدليل:

الأوّل: الحقائق الخارجية.

الثاني: القيم الأخلاقية.

حيث نواجه في كلا المجالين السؤال التالي: ما هو مصدر التأكّد من ثبوت الحقائق الخارجية؟ وما هو مصدر الإلزام بالقيم الأخلاقية؟

وفي كلا الأمرين يقال: إنَّ مصدر ثبوت الحقائق الخارجية ومصدر الإلزام بالقيم الأخلاقية هو الإنسان[١]. أي عبر قناعة الإنسان واستدلال الإنسان، لذلك فإنَّ كلّ موجودات ما وراء الطبيعة لا تمتلك قيمة علمية، لأنَّها لا تمرّ عبر أوراق الترشيح لدى الإنسان. ومن هذه الموجودات: الملائكة والجنّ. وبتعبير آخر لهذا الدليل: إنَّ ثبوت الحقائق في الخارج يحتاج إلى إثبات ولا يكفي مجرَّد الادّعاء، والإثبات[٢] هو جهد إنساني أي أنَّ الإنسان يكون لديه دليل على

(١) في الفلسفة اليونانية القديمة ظهر نمط من التفكير يزعم بأنَّ الإنسان معيار للحقّ، نوع من عبادة الذات (Egocentrism) أو عبادة الإنسان (Humanism) لا يستند إلى منطق أو دليل، هذه الدنيا هي كلّ شيء، والوجود خال من المضمون، لا شيء في السماء، ولا هدف للخلقة ولا روح ولا إحساس ولا شعور، الطبيعة ظلام في ظلام، وجهل في جهل، وظلم في فساد، وعلى الإنسان أن يتصدّى لإيجاد الغاية والهدف وضخّ الروح والحياة في جسد الكون. راجع: معرفة الإسلام/ علي شريعتي: ١٥١.

وجعل جون لوك - فيلسوف انكليزي (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) - الإنسان هو مقياس الحقيقة كلّها إذ هي تكوَّنت من تفاعل عقله (عضوياً) مع الأشياء، وكلّ ذات مستقلّة بنفسها تفكّر لوحدها، ولا يتَّصل عالم الأشياء الخارجية بعالم الإنسان إلاَّ بما يكوّنه هذا عنه من أفكار يحصل عليها بقوّة (إحساسه) وفكره. راجع: الإنسان في الفلسفة دراسة تحليلية/ عبد الله الخطيب: ٤٦.

(٢) الإثبات: أ - ويقابله النفي أو السلب، كما في قولهم: النكرة في سياق الإثبات. \

المطلوب. لذلك نستنتج أنَّ الثبوت تابع إلى الإنسان، تابع إلى الجهد والتجربة البشرية، لذلك فإنَّ أيّة حقيقة لا تثبت بالجهد البشري فهي ليست قابلة للتصديق. فالإنسان هو مصدر الثبوت.

أمَّا على مستوى الإلزام في مجال القيم الأخلاقية فيقال مثلاً: إنَّ الاعتداء على حقوق الآخرين يمثّل قيمة أخلاقية سلبية، والوفاء بالعهود والصدق يمثّل قيمة إيجابية وأنت ملزم به.

لذلك فالعلماء يبحثون عن مصدر هذا الإلزام ومبرّراته، فمثلاً أن تنفق مالك في سبيل علاج والدك أو والدتك فما هو الذي يدفعك لذلك ويجعلك ملزماً به؟ وجواب ذلك أنَّ الإنسان هو مصدر الإلزام الأخلاقي أي: اقتناع الشخص بالعمل الذي يقوم به من شرّ أو خير، فمثلاً إذا مرضت فأنت مقتنع بذهابك إلى الطبيب وأخذ العلاج عن طريق إلزامك الإرادي، في حين نجد أنَّ المجنون لا يأخذ العلاج أو قد يرفضه لأنَّه غير مقتنع بأهمّيته.

وفي ضوء ذلك يقول الدليل الرابع: إنَّ الإلزام يحتاج إلى قناعة. والقناعة هي فعل إنساني. إنَّها تجربة العقل أو تجربة الضمير أو تجربة الوجدان، إذن هي تجربة إنسانية، لذلك نستنتج أنَّ الإلزام بأيّ موقف يجب أن يكون عن قناعة. إنَّ توجهّك للصلاة يمثّل سيراً إلى الله تعالى

]

ب - الاستدلال: كما في قولهم: على صاحب الرأي إثباته. جـ - النصّ الذي يستخدم كدليل، من قبيل آية أو رواية، كقولهم: الإطلاق في مقام الإثبات كاشف عن الإطلاق في مقام الثبوت. معجم مفردات أصول الفقه المقارن (معجم ثنائي اللغة عربي - انكليزي)/ تحسين البدري: ٣٥.

باقتناعك وإرادتك. ونستنتج أنَّ أيّ إلزام قانوني شرعي هو وليد رؤية الإنسان وكما كان الجهد العلمي للإنسان هو الذي ينتج التأكّد من ثبوت الحقائق في الخارج، فإنَّ الجهد الأخلاقي للإنسان هو الذي ينتج الإلزام بتلك القيم الأخلاقية التي يراها. وينتج عن ذلك نظرية (أصالة الإنسان)، أي أنَّ الإنسان هو الأصل في أيّ ثبوت علمي أو في أيّ إلزام أخلاقي.

وعلى أساس هذا الاستدلال تقول الحداثة: إنَّ الصوم حين يقول الدين: (جُنَّة من النار) فإنَّك لم تكشف هذا بنفسك، بل أنت مجبر على القيام به بقرار من أعلى، والحداثة ترفض هذا الجبر لأنَّه لا ينطلق من رؤية الإنسان نفسه، وهكذا في مجال الثبوت العلمي، فهل تستطيع أن تثبت أنَّ هناك كائنات وراء الطبيعة علمياً؟ أو هل تستطيع أن تثبت أنَّ هناك سبع سماوات؟ الحداثة تقول: إنَّه لا وجود لما وراء الطبيعة طالما لم يثبت ذلك بالجهد البشري العلمي.

الدليل الخامس: نظرية الحياة الأصيلة:

يعتمد هذا الدليل على التمييز بين القضايا الحقيقية والقضايا الاعتبارية.

الحداثة تقول: إنَّ القضايا الاعتبارية وهمية لا يجب أن نهتمّ بها، فإذا أراد الإنسان أن يكون سعيداً فعليه أن يهتمّ بالقضايا الحقيقية وليس الاعتبارية.

والقضايا الحقيقية في تصوّر الحداثة هي ثلاثة فقط: وهي منفعة الإنسان، وراحته، وحرّيته.

الطفل أيّام طفولته يتّجه نحو ثلاث أمور: أوّلاً: راحته، وثانياً: منفعته، وثالثاً: حرّيتهً. وهذه غرائز ذاتية في الإنسان.

لكن عندما يكبر هذا الطفل تتشكّل لديه قضايا اعتبارية، فيبدأ يفكّر

بالرضا، والغضب، والكره، والحبّ. وهكذا تتطوَّر، وكلَّما يكبر تنمو عنده القضايا الاعتبارية أكثر وهذه تأخذ حجماً أكبر من اهتمامات الإنسان.

العالم اليوم يتحرَّك نحو القضايا الاعتبارية مثل: الاحترام، الحبّ، ومعركة النجومية اليوم على الاسم وليس على المال وهذا يؤثّر حتَّى بالاتّجاهات السياسية.

الحداثة تقول: إنَّ سبب المشاكل وسبب بؤس الإنسان هو التفكير بالقضايا الاعتبارية على حساب القضايا الحقيقية والحاجات الغريزية ومن أجل تحقيق السعادة للناس يجب الإعراض عن جميع القضايا الاعتبارية.

الحداثة تقول: سبب البؤس هو التقاطع مع الذات وسبب السعادة هو التوافق مع الذات، والحياة الأصيلة هي الحياة القائمة على أساس تحقيق رغبات الذات، والحياة المجازية الكاذبة هي الحياة التي تهتمّ بالقضايا الاعتبارية الوهمية ولا تتوافق مع الذات.

التوافق مع الذات يعني عدم التفكير بالمستقبل مطلقاً وعدم التفكير بالماضي. أي: الشطب على التاريخ والعيش مع الآن دون التفكير بالمستقبل، عيش مع الذات ودوافعها الأصلية وهي عبارة عن (راحة، منفعة، حرّية) لأنَّها قضايا حقيقية.

في ضوء هذه النظرية تؤكّد الحداثة على مبادئها الثلاثة الذاتية، العقلانية، العدمية، فإذا كانت الحياة الأصيلة هي ما تهتمّ بالقضايا الحقيقية فقط إذن تتأكَّد ذاتية الإنسان في كلّ شيء، ولا يبقى ما يبرهن على أهداف كبرى وراء هذا الوجود يجب الاهتمام بها، كما لا يبقى مبرّر للاقتناع بأيّة معلومة لا تحقّق للإنسان أنانيته والشخصية.

* * *

الفصل الخامس:

نقد

الأسس العلمية للحداثة

نقد الدليل الأوّل: استحالة المعرفة الموضوعية:

يقول الدليل الأوّل: إنَّ كلّ معارفنا عن الأمور الخارجية هي انعكاس لإحساساتنا وقدراتنا الذاتية الداخلية. وهذا الاستدلال يتضمَّن خطأ في كيفية الاستنتاج. فالماء يتلوَّن بلون الوعاء وهذا صحيح، وكلّ ما نراه في الخارج بقدرة العين يتأثَّر بلا شكّ بطبيعة تركيب العين وقوانين الرؤية، لكن هل يعني ذلك استحالة تكوين معرفة موضوعية صادقة أم أنَّ المستحيل هو الكمال المعرفي لا أصل المعرفة؟ وهنا الفرق بين الأمرين: الأوّل استحالة المعرفة الصحيحة، والثاني استحالة الكمال المعرفي.

نحن نعتقد أنَّ الكمال المعرفي مستحيل كمثل الماء حين تأخذه من البحر في وعاء فإنَّك لا تستطيع أن تجمع البحر كلّه في وعاء كما أنَّ الماء الشفاف سوف يتأثَّر بلون الوعاء. وهكذا بالنسبة للموجودات والحقائق الخارجية كلّها فلقد عرفنا أنَّ (الذات) هي وعاء المعرفة والمعرفة تتأثَّر بحجم الوعاء ولونه، إذن فالمعرفة ذاتية.

ونتيجة لهذا الاستدلال يستحيل أن تكون المعرفة متطابقة مائة بالمائة مع الموضوعات الخارجية، وهذا صحيح ولكن هل هذا يعني استحالة تكوين المعرفة؟ إنَّ المعرفة التي نكوّنها عن الأشخاص الذين يحيطون بنا هي معرفة محدودة وبحجم قدراتنا الإدراكية وليست معرفة كاملة ومطلقة، وهذا الأمر حتَّى من الناحية الإسلاميّة صحيح وذلك لقوله تعالى: [وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ

الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً][1]، وكذلك قوله تعالى: [يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ][2]، أي أنَّنا نعلم ظواهر الأشياء وليس جواهرها، فالظواهر الطبيعية مثل الرياح والأمواج والضوء أشياء نعرف ظاهرها وليس جوهرها، والعلم غير قادر على اكتشافها بشكل كامل ونهائي. ومن هذا نكتشف أنَّ المعرفة محدودة، ولكن ليست مفقودة. لذلك نحن نعتقد أنَّ المعرفة تتأثَّر بمستوى إدراكاتنا ولكلّ شخص مستواه. وذلك لا يعني استحالة المعرفة وهدم الهرم المعرفي للإنسان، فهذا غير صحيح بل لدينا ثوابت علمية مثل: أنَّ الكرة الأرضية متحرّكة وهذا ثابت علمي وموضوعي وليس ذاتياً[3].

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) الروم: ٧.

(٣) بين منهج الإنكار المبني على إنكار الواقعيات والحقائق، ومنهج اليقين الذي يتبنّى واقعية جميع المدركات، هناك نهج يتوسّطهما، حاول التوفيق بينهما، فلم ينكر الواقعيات على وجه القطع ولم يثبتها كذلك، بل التزم موقف الشكّ منها. وهناك الشبهات التي أثارها المشكّكون منها شبهة خطأ الحواس، وشبهة أنَّ المدرَك هو الصور الذهنية لا الواقع، وشبهة خطأ الإدراكات العقلية. فللإجابة على شبهة خطأ الحواس نقول: إنَّ القائلين بمنهج اليقين لا يدَّعون أنَّ الإنسان خُلِق مصوناً عن الخطأ والسهو، وإنَّ الحواس الإنسانية لا تحيد عن الحقيقة، بل كلّ ذي لبّ يعترف بأنَّ له أخطاءً جمّة ربَّما تحيط به وهو غافل عنها، بل ربَّما يقضي حياته على غفلات واشتباهات، وإنَّما غرضهم أنَّ وراء ذاتنا وتفكيرنا واقعيات وحقائق نصل إليها بالحواس، يرشدنا إلى ذلك الإمكان، نفس أفعالنا في الضروريات اليومية التي تصدر منّا على نظام واحد، فإنَّ أبناء البشر يأكلون إذا جاعوا، ويشربون إذا ظمئوا، ويفرّون من الضواري إذا واجهتهم. ولو كان ذلك من مواليد أوهامهم، فأيّ معنى لهذا النظام السائد؟ ولماذا لا يأكلون عند الظمأ ولا يفرّون عند الجوع؟ كلّ ذلك يرشدنا إلى التفريق بين التفكير الذي ليس وراءه واقع موضوعي، والتفكير الذي وراءه ذلك الواقع. وإنَّ الاهتداء إلى وقوع الخطأ في بعض الحواس، دليل على أنَّ هناك حقائق مسلَّمة لا يشوبها ريب الشكّ، وقد اهتدينا ببركتها إلى وجود بعض الأخطاء. لمعرفة المزيد من التفاصيل حول منهج تقييم المعرفة وشبهات المشكّكين والإجابة عنها راجع: نظرية المعرفة/الشيخ جعفر سبحاني: ٦٣ - ٧٤.

نقد الدليل الثاني: عجز الأدوات المعرفية العقلية:

لقد كان الدليل الثاني عبارة عن القول بعجز الأدوات المعرفية عن تحصيل اليقين لأنَّ اليقين لا يتكوَّن إلاَّ من خلال التجربة وإخضاع كلّ الأمور للتحليل العلمي، وهذا أمر لا يتوفَّر لأدوات المعرفة العقلية التي لا تخضع للاختبار والتجربة.

إنَّ عالم الغيب وما وراء الطبيعة لا يخضع إلى اختبار لكي يكون فيه يقين، وكذلك عالم الآخرة غير خاضع للاختبار إذن هو غير يقيني. وبحسب هذا الاستدلال فإنَّ كلّ معلومة لا تخضع للدليل المعرفي التجريبي سوف تسقط، والذي يخضع للتجربة هو وحده اليقيني.

لكن هذا الاستدلال غير صحيح.

ونحن نعتقد بمجموعة قضايا:

الأولى: إنَّ كلّ معلومة غير يقينية لا تتمتَّع بقيمة علمي ولا يمكن الوثوق بها.

الثانية: إنَّ كلّ معلومة يجب أن تخضع للاستدلال، فنحن لا نقبل معلومة بدون دليل، لكن هذا الاستدلال مرَّة يكون بدليل التأمّل العقلي وأخرى بدليل التحليل علمي، وهكذا الاستدلال يكون مرَّة مباشراً وأخرى غير مباشر.

على سبيل المثال: لو رأيت عشاً على شجرة ولم ترَ الطير، فأنت بالاستدلال العقلي تعرف أنَّ هذا العش في هذا المكان، قد صنعه الطير بهذا الترتيب الهندسي. وهذا هو الاستدلال بواسطة التأمّل العقلي، وهو يتكوَّن نتيجة لبديهيات عقلية ومعلومات فطرية تقول: إنَّ لكلّ معلول

علّة[١]، وهذا الأمر رغم أنَّه لا يخضع لاختبار تجريبي فأنت لم ترَ الطير، وربَّما يكون الطير قد هاجر أو مات، لكن أنت على يقين بأنَّ هاهنا طيراً قد صنع هذا العش.

ومعنى ذلك أنَّ الأدوات المعرفية العقلية غير التجريبية قادرة على تحصيل اليقين كما هي الأدوات العلمية. فهناك أدوات مادية وأدوات عقلية[٢] لتحصيل اليقين.

وهذا اليقين يمكن أن يكون مباشراً و غير مباشر. فمثلاً اليقين المباشر حينما تعرف أنَّ شخصاً مريضاً راقداً في المستشفى وتذهب لزيارته، وحينئذٍ يتكوَّن لديك يقين بوجوده على السرير وهذا يسمّى يقيناً مباشراً.

ولكن اليقين قد يتكوَّن في المثال السابق بطريقة غير مباشرة حينما تجد عدداً من الأصدقاء يتوافدون على المستشفى ويخبروك بأنَّهم قد زاروا صديقاً لك على سرير المرض، فإنَّ هذا كافٍ لتوليد اليقين لديك بأنَّ صديقك بالفعل هو راقد في المستشفى.

بل إنَّ اليقين الاستدلالي غير المباشر هو الذي يحكم معظم معلوماتنا. فحين يقول الأنبياء: إنَّ الوحي أخبرنا أنَّ هناك شيئاً اسمه الصراط والقيامة

---

(١) بخصوص مبدأ العلّية راجع: أصول الفلسفة والمنهج الواقعي/السيّد محمّد حسين الطباطبائي/ تقديم وتعليق الشيخ الشهيد مرتضى مطهري ٢: ١٠٣. وهناك محاولات للاستدلال على مبدأ العلّية بدون أخذه كمصادرة، راجع: الأسس المنطقية للاستقراء/ السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر: ١٣٥ وما بعدها.

(٢) لمعرفة المزيد من التفاصيل حول الأدوات المعرفية المادية والعقلية وتقييمها راجع: نظرية المعرفة/الشيخ جعفر سبحاني: ١٣٧ - ١٩٠.

والميزان، فيتكوَّن لنا يقين بذلك من خلال يقيننا بصدق الأنبياء، وهذا هو الاستدلال غير المباشر. وكذلك الحال بالنسبة للجنّة والنار. واحتمال وجود الخطأ في الاستدلال غير المباشر لا يعني هدم هذا اليقين، وكذلك اليقين المباشر قد تكون فيه نسبة من الخطأ، لكن ذلك لا يعني نفي اليقين.

نقد الدليل الثالث: بداهة مبدأ العلّية:

وهو بداهة مبدأ العقلية وضرورة معرفة سبب مادي للحوادث.

هذا الدليل الثالث ـ الذي يقول: إنَّه لا يمكن القبول بتفسير للحوادث لا يتضمَّن اكتشافاً لعللها المادية ـ يستبطن تفكيراً مزدوجاً مرفوضاً. ذلك أنَّ هناك اتّجاهين في تفسير حوادث الطبيعة وفهمها هما: التفسير الأعمى والتفسير الواعي.

فالاتّجاه الأوّل يفهم الطبيعة على أنَّها حركة عمياء تخضع لأسباب ليس لديها وعي أو حياة أو إدراك وإنَّما هي حركات يتبع بعضها بعضاً بدون وعي ولا غاية ولا تخطيط مسبق.

يمكن أن نوضّح ذلك من خلال التمييز بين حركة الرياح وحركة الإنسان.

فأنت حين تمشي مسرعاً فإنَّ لديك وعي وإرادة، بينما حركة الرياح هي حركة ديناميكية غير واعية، وقد تؤدّي إلى تدمير غير مقصود، ودون أن يكون هناك وعي أو حياة. وهكذا حركة الشمس والأرض والقمر فهي تعتبر حركة ديناميكية دون أن تستبطن في داخلها وعياً أو إرادة، وهي سلسلة حركات طبيعية غير واعية في جميع الظواهر الكونية، وليست مثل حركة الإنسان إذا هرب من خطر فإنَّها حركة

واعيــة هادفــة، إنَّ الفهــم الأعمــى للوجــود يقــول: إنَّ حركــة الوجــود هــي حركة عمياء لا تقف وراءها إرادة واعية وأهداف مقصودة.

أمَّـا الفهــم الثـاني فيقــول: إنَّ حركــة الوجــود ليــست حركــة عميــاء وإنَّمـا هــي حركــة واعيــة وهــي تخـضع لـوعي مطلـق وإرادة مطلقــة تـسيّرها، وتلك هي إرادة الله تعالى الذي [يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ](١).

الــدين يــؤمن بــالفهم الــواعي للطبيعــة فهــي تخــضع لقــوانين وإرادة تــسيير تلـك القــوانين. وهــي إرادة (الخــالق)، وهنــاك إرادة وعوامــل مــا وراء الطبيعـة هـي التـي قـدَّرت تلـك القـوانين الطبيعيـة، وهـي التـي صـنعتها وهـي التـي تحكمهـا فهـو الـذي [يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ](٢) وهـو الذي تجري الرياح بأمره وهكذا جميع الوجود.

الرســول 9 حينمــا نــزل مــن غــار حــراء وقــد نزلــت عليــه ســورة [اقْرَأْ](٣) كــان كــلّ شــيء مــن حجــر وشــجر يــسلّم علــى الرســول ويقــول: (السلام عليك يا رسول الله...)(٤).

وكـذلك قولـه تعـالى: [قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ](٥)،

(١) السجدة: ٥.

(٢) الحجّ: ٦٥.

(٣) أي سورة العلق.

(٤) عـن مـولى الموحّـدين وأميـر المـؤمنين C قـال: «كنـت مـع النبـيّ 9 بمكّـة، فخرجنـا فـي بعـض نواحيهـا خارجـاً مـن مكّـة، بـين الجبـال والـشجر، فلـم نمـرّ بجبـل ولا شـجر إلاَّ قـال: الـسلام عليــك يــا رســول الله». مناقــب الإمــام أميــر المــؤمنين C / محمّــد بــن ســليمان الكـوفي: ٣٧؛ ومثلـه فـي كنـز الفوائـد/ أبـو الفـتح الكراجكـي: ١٢٥؛ والثاقـب فـي المناقـب/ ابن حمزة الطوسي: ٦٩؛ وغيرها من المصادر التي تروي مناقب الرسول والأئمّة G .

(٥) الأنبياء: ٦٩.

فاستجابت النار، ممَّا يدلّ على أنَّ لديها وعياً، وهكذا يأتي الدين ويقول: أنا لا أنفي وجود أسباب طبيعية، لكن لدي رؤية تقول بما يأتي:

أوّلاً: إنَّ الأسباب الطبيعية خاضعة لإرادة أعلى منها تسيّرها. وهذه هي النقطة الفاصلة بين الدين والحداثة.

ثانياً: إنَّ هذه الأسباب الطبيعية هي نفسها أيضاً واعية وغير عمياء، مثل الإنسان لديه وعي وكذلك الحيوانات لديها وعي وكذلك الجوامد لديها نوع من الوعي والخضوع والاستجابة للإرادة الإلهية الكبرى الذي **[**تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**]**(1).

الحداثة مسؤولة عن تقديم الدليل على نفي الوعي ونفي الإرادة العليا، وهي غير قادرة على التدليل على ذلك النفي، في حين يقدّم الدين الدليل من خلال إثارة وجدان الإنسان نحو اكتشاف الحقيقة وتكوين اليقين.

فالإنسان بوجدانه الذاتي يبحث عن الأسباب لكلّ شيء، والوجدان الإنساني يقول: إنَّ هناك إرادة واعية تحرّك الأشياء.

وهذه الإرادة تسمّى (أمر الله) وكلّ شيء يخضع لأمره وعلى أساس ذلك فإنَّ الإسلام يرفض التفسير المادي الحداثي لأثر الصدقة في دفع البلاء وأثر صلة الرحم في طول العمر، بل يعتقد أنَّ نوعاً من الترابط والتأثير بين الصدقة ودفع البلاء، وبين صلة الرحم وطول العمر لا يخضع للعوامل المادية المعروفة لدى الإنسان، بل هو ترابط سببي وعلى طريقة العلّة والمعلول ولكنَّه ليس بالضرورة خاضعاً لمستوى معلوماتنا المادية، هو ترابط يكشفه لنا الوحي دون أن نعرف ديناميكيته بشكل مباشر.

---

(1) الإسراء: ٤٤.

نقد الدليل الرابع: الإنسان مصدر الثبوت والإلزام:

لقد اعتمد الدليل الرابع ـ الذي يرى أنَّ الإنسان هو وحده مصدر الثبوت والإلزام ـ على نظرية آمنت بها الحداثة واعتبرتها أساساً في رؤيتها للإنسان والكون وهي نظرية (أصالة الإنسان)، وحيث كنّا بصدد مناقشة أدلّة الحداثة الفلسفية كان من المفيد أن نناقش هذه النظرية الحداثية.

معنى أصالة الإنسان:

ما هو المقصود بـ (أصالة الإنسان)؟

إنَّ عدّة معاني يمكن أن تُذكر لهذا العنوان:

المعنى الأوّل: أهمّية الإنسان في هذا الوجود وتميّزه عن سائر المخلوقات بالعمل والإرادة والقدرة على تسخير الطبيعة، فهو الأصل الذي يجب أن تخضع له الطبيعة ويتمتَّع بحرّية في فرض إرادته عليها.

المعنى الثاني: احترام إرادة الإنسان واعتبار أنَّ بناء الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان يجب أن يمرّ من خلال قناعاته وإرادته وليس بعيداً عن ذلك، كما يجب الاهتمام بتجاربه العلمية وخبرته المتراكمة عبر التاريخ في سبيل الارتقاء بوضعه.

المعنى الثالث: إنَّ الإنسان هو الهدف من مجمل التشريعات والتقنيات والكشوفات العلمية حيث يجب أن تدور كلّها حول مصلحة الإنسان نفسه لا بعيداً عن مصلحته، فكلّ شيء في هذه الحياة هو من أجل الإنسان وليس الإنسان من أجل أشياء أخرى.

هذه معان ثلاثة للأصالة، ومن الجدير أن نعرف أنَّ الإسلام يؤمن

بأصالة الإنسان على مستوى هذه المعاني الثلاثة، فالطبيعة مسخّرة للإنسان [سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماوات وَما فِي الأَرْض](١) والإنسان هو خليفة الله في الأرض [وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً](٢) كما أنَّ الإسلام يؤمن بضرورة تصدّي الإنسان ومن خلال خبرته ومبادراته لتذليل الصعاب الطبيعية والاجتماعية التي تعتريه، وضرورة تطوير كفاءاته العلمية من خلال البحث والاجتهاد واعتبر ذلك مقياساً في كمال الإنسان [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ](٣).

كما أنَّ الإسلام يعتقد أنَّ كلّ التشريعات الإلهية النازلة على الإنسان من عالم السماء هي تشريعات تتمحور حول الإنسان نفسه ومن أجله هو بالذات فالإنسان هو محور الاهتمام في مجمل التشريع الإسلامي، كما أنَّه ينبغي أن يكون هو المحور في مجمل التشريعات البشرية أيضاً.

إنَّ جميع الأنبياء والرسل وجميع الرسالات الإلهية كانت بصدد النهوض بالإنسان وتكامله وسعادته [لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ](٤)، [لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمات إِلَى النُّور](٥)، [وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ](٦).

المعنى الرابع: الإنسان هو مصدر الحقّ والحقيقة.

فكلّ معلومة لا يمكن قبولها إلاَّ إذا اكتشفها الإنسان بنفسه وأثبتها بعقله.

---

(١) لقمان: ٢٠.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) الحديد: ٢٥.
(٥) الحديد: ٩.
(٦) الأنبياء: ١٠٧.

وكلّ قيمة أخلاقية لا تمتلك مستوى الإلزام إلاّ إذا ثبت لدى الإنسان مدى تحقيقها لمنافعه ومصالحه.

هذا المعنى من الأصالة هو المقصود طبعاً لدى البحث عن نظرية (أصالة الإنسان) وهنا من الجدير أن نعرف ما هي النظرية الإسلاميّة حول هذا الموضوع.

نظرية أصالة الحقّ:

الفكر الإسلامي ومن خلال ما تتحدَّث عنه مجموع النصوص الإسلاميّة يؤكّد أنَّ الحقّ والحقيقة يجب أن يكون هو الأصل والمحور في اهتمامات الإنسان وسائر التشريعات المتعلّقة به، وهذا ما يمكن أن نسمّيه بنظرية (أصالة الحقّ).

إنَّه لا شيء فوق الحقّ، ولا شيء يفرض نفسه على الحقّ، و[الْحَقّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ][1] بدءاً من الإيمان بالله تعالى ومروراً بالأنبياء والرسل وحتّى نصل إلى التشريعات الإلهية الموجَّهة إلى الإنسان فإنَّ جميع ذلك يدور مدار الحقّ.

الإيمان بالله تعالى ينطلق من أنَّ الله هو الحقّ [ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِه هُوَ الْباطِلُ][2]، [نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقّ][3] والشرائع الإلهية تضع الحقّ مقياساً لها قبل مقياس المصلحة والمنفعة، رغم أنَّ الحقّ هو الذي يُحقّق مصالح الإنسان ومنافعه [قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ][4]. كما أنَّ الحقيقة أكبر من الإنسان، والإنسان هو جزء من الحقيقة الكونية

---

(١) يونس: ٣٥.

(٢) الحجّ: ٦٢.

(٣) آل عمران: ٣.

(٤) الأعراف: ٢٩.

الكبرى [لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ][1] فلا معنى لأن يفترض الإنسان نفسه هو المقياس لإثبات كلّ حقيقة.

إنَّ الحقيقة قد يتعرَّف عليها الإنسان من خلال جهده العلمي، وقد تتحدَّث الحقيقة عن نفسها وتكشف للإنسان بعض صورها من خلال الوحي [وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ][2] إنَّ من الغرور الفاضح أن يرى الإنسان نفسه محور الوجود كلّه متعالياً على الحقّ والحقيقة، ناسياً أو متناسياً أنَّه لم يكن إلاَّ وليد السنوات الأخيرة لعمر الكون [هَلْ أَتى عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً][3].

وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ الحقّ والحقيقة هو ما يجب أن تدور عليه اهتمامات الإنسان نفسه من أجل توافقه مع الحقيقة وانسجامه معها وليس الاصطدام معها والإعراض عنها فيكون كمن يمشي مكبّاً على وجهه كما قال الله تعالى: [أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ][4].

نقد نظرية: الإنسان مصدر الثبوت والإلزام:

يجب أن نعرف أنَّ هناك قياسات استدلالية باطلة[5] وقياسات استدلالية صحيحة، أي أنَّ الخطأ قد يكون في الطريقة الاستدلالية رغم أنَّ كلّ مقدّمات الدليل صحيحة لكن النتيجة تكون غير صحيحة لأنَّ

(١) غافر: ٥٧.

(٢) البقرة: ١٥١.

(٣) الإنسان: ١.

(٤) الملك: ٢٢.

(٥) راجع: منطق المظفر ٣: ٣٨٣ وما بعدها فيما يخصُّ صناعة المغالطة.

الطريقة الاستدلالية غير صحيحة. مثلاً الطبيب قد يطلب من المريض أن يأخذ صورة بالأشعة وجهاز الأشعة جيّد والصورة جيّدة لكن قد يخطئ الطبيب في قراءتها فالخطأ هو في طريقة الاستنتاج لا في أصل الصورة. ومن هنا يمكن أن نعرف أين أخطأ مفكّرو الحداثة.

ولننظر بعض الأمثلة للقياسات الاستدلالية الباطلة.

مثال القياس الاستدلالي الباطل:

الجامعة فيها طلاّب.

الطلاّب عديدون.

هل يمكن أن نستنتج أنَّ الجامعة عديدة؟ هذا شيءٌ خاطئ، والخطأ هنا ليس من القضيّة الأولى ولا من القضيّة الثانية بل خطأ في طريقة الاستنتاج، فالصحيح أن نقول: (الجامعة فيها طلاّب عديدون).

مثال آخر:

الجامعة فيها أساتذة.

الأساتذة جائعون.

هل يمكن أن تكون النتيجة أنَّ الجامعة جائعة؟ هذا خطأ منطقي طبعاً، والنتيجة الصحيحة هي أن نقول: (الجامعة فيها أساتذة جائعون) وليست: (الجامعة جائعة).

والمناطقة يمثّلون مثالاً آخر للقياس الباطل وهو كالتالي:

الجدار فيه فأرة.

والفأرة لها أذنان.

إنَّك لو قلت حينئذٍ: الجدار له أذنان، كان هذا استنتاجاً خاطئاً والصحيح هو أن تقول: الجدار فيه حيوان له أذنان.

خطأ في الاستنتاج:

وهكـذا بالنـسبة لـدليل الحداثـة الرابـع فهـي حـين تتحـدَّث ـ فـي النمـوذج الأوّل ـ عـن أصـالة الإنـسان وإنّ كـلّ ثبـوت هـو مـن خـلال الإثبـات وإنَّ الإثبـات هـو جهـدٌ إنـساني، إذن الثبـوت لا يكـون إلاّ مـن خـلال الإنـسان. وهكـذا فـي النمـوذج الثـاني لـدليل الحداثـة الـذي يقـول: إنّ كـلّ إلـزام أخلاقـي يجـب أن يمـرّ مـن خـلال إرادة الإنـسان إذن كـلّ قيمـة إنـسانية هي من صنع الذوق الإنساني ولا واقعية لها.

الحقيقة أنَّ هذا القياس الاستدلالي باطل ونتائجه باطلة.

النمـوذج الأوّل يقـول: لا ثبـوت لحقيقـة مـن الحقـائق إلاّ مـن خـلال إثباتهـا علميـاً، والإثبـات هـو جهـد إنـساني، إذن الحقـائق هـي جهـد إنـساني، أي أنَّه لا توجد حقيقة غير ما يثبته الإنسان علمياً.

الصحيح أنَّ هذا الدليل فيه خطأ، كمثل الخطأ في الأمثلة السابقة التي أنتجت نتائج باطلة: (الجامعة متعدّدة)، (الجامعة جائعة)، (الجدار له أذنان)، فإنَّ الصحيح في نتيجة الدليل الرابع هي أنَّه لا يمكن التأكّد من صحَّة معلومة إلاَّ من خلال الإثبات العلمي لها. وبعبارة أخرى: (لا يقين ولا معلومة بدون إثبات علمي) وهذه نتيجة صحيحة، بخلاف ما لو قلت: إنَّه (لا حقيقة في الخارج إلاَّ ما كان ثابتاً لدى الإنسان) فرُبَّ حقائق موجودة لم تثبت للإنسان إلاَّ بعد مئات السنين أو قد لا تكتشف إلى الأخير وهكذا فالإنسان ليس هو مصدر للثبوت وإنَّما هو مصدر للإثبات العلمي.

الإثبات مباشر وغير مباشر:

والإثبـات (الجهـد) يمكـن أن يـتمّ عـن طريـق اسـتدلال مباشـر أو غيـر

مباشر، وهذا في النظرية الدينية أي أنَّك تقوم بالاستدلال مباشرة وذلك من خلال اكتشاف المجرّات والنجوم مثلاً، أو يأتي نبيّ ويقول: قد أوحيَ إليَّ وتحدَّثت مع الملائكة بوجود سماء، وعرش، وكرسي، وجنّة، ونار، وهذا استدلال غير مباشر، فاعتقادنا بعالم ما وراء المادة (الميتافيزيقيا) هو استدلال غير مباشر وهو طريقة من طرق الإثبات صحيحة، بمعنى أنَّنا قد نكتشف ثبوت بعض الحقائق من خلال جهدنا المباشر، وقد نكتشف ثبوت بعض الحقائق من خلال الوحي وهو إثبات علمي ولكنَّه بطريقة غير مباشرة.

النموذج الثاني للدليل الرابع:

أمَّا النموذج الثاني للدليل الرابع وهو أنَّ الإلزام بأيّة قيمة أخلاقية لا يكون إلاَّ من خلال قناعة الإنسان فالإنسان هو مصدر الإلزام ولا يوجد شيء فوقه يفرض عليه واجباً من الواجبات وإلزاماً من الإلزامات.

لقد ارتكب الدليل الرابع خطأ استدلالياً أيضاً كالسابق.

فالإنسان هو مصدر اكتشاف القيم وليس هو مصدر وجودها وثبوتها في الواقع، ومعنى ذلك أنَّ الوحي يستطيع أن يفرض علينا قيمة أخلاقية من فوقنا وليس بالضرورة أن تكون لنا قناعة بها، لأنَّ القيم الأخلاقية هي كالحقائق العلمية موجودة وثابتة خارج وعاء الإنسان وإنَّما الإنسان هو الذي يعرفها ويكتشفها إمَّا بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر كما أسلفنا.

فإذا قال الوحي الإلهي: إنّي أُحرّم عليكم المثلية الجنسية (اللواط والسحاق) لأنَّه يمثّل قيمة أخلاقية سلبية، فإنَّ هذا كافٍ لفرض الإلزام بهذا الحكم دونما حاجة لأن يكون الالتزام به متولّداً عن قناعتنا مباشرة.

إنَّ الحداثة تورَّطت بخطأ استنتاجي في الدليل الرابع حينما قالت:

إنَّ كلّ قيمة أخلاقية لا تتمتَّع بالإلزام القانوني إلاَّ من خلال قناعة الإنسان وإرادته المباشرة، بل الصحيح أنَّ كلّ قيمة أخلاقية لا تتمتَّع بالزام إلاَّ من خلال ثبوتها وواقعيتها، وهذا الثبوت والواقعية إمَّا أن يكتشفه الإنسان بنفسه مثل قبح الكذب والسرقة وحسن الصدق والإحسان، وإمَّا أن يكتشفه من خلال الوحي والمصدر التشريعي الإلهي **[وَما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا]**[1].

نقد الدليل الخامس: نظرية الحياة الأصيلة:

يعتمد الدليل الخامس على اعتبار أنَّ القضايا الحقيقية الصادقة هي فقط الدوافع الثلاثة لدى الإنسان نحو الحرّية، والمنفعة، والراحة، وما عداها من دوافع وقيم فهي اعتبارات تراكمت بفعل عوامل اجتماعية وثقافية غير أصيلة في ذات الإنسان، وعلى أساس ذلك فإنَّ السعادة إنَّما تتمّ من خلال الاهتمام بالدوافع الأصيلة فقط وإهمال القضايا الاعتبارية.

ومن وجهة نظر إسلاميّة فإنَّ القضايا الحقيقية جديرة بالاهتمام، وطريق تحصيل الحياة السعيدة هو توفير ما تستحقّه القضايا الحقيقية والأعراض عن القضايا الوهمية الخيالية.

لكن الافتراق بين الفكر الإسلامي والفكر الحداثي هو في الإجابة على سؤال: ما هي القضايا الحقيقية؟

الإسلام يرى أنَّ هناك مجموعة قضايا حقيقية أصيلة لدى الإنسان. ذلك أنَّ الإنسان يحمل دوافع غريزية مادية نحو الراحة والمنفعة

---

(١) الحشر: ٧.

والحرّية، كما يحمل دوافع أصيلة ذاتية أيضاً نحو الحياة الاجتماعية، ويحمل دوافع ذاتية أيضاً نحو الارتباط بالمطلق والسكون إليه، ويحمل رابعاً دوافع فطرية ذاتية نحو العيش الأبدي والحياة الدائمة.

لقد تصوَّرت الحداثة أنَّ الدوافع المادية وحدها هي الأصيلة لدى الإنسان، فيما يرى الإسلام أنَّ بحث الإنسان عن العيش في وسط اجتماعي، والتعلّق بعالم ما وراء الطبيعة، والحرص على ربح الحياة الأبدية هو نزوع فطري موجود لدى جميع الناس الكافر منهم والمؤمن، ومن هنا كانت قضيّة الدين تمثّل حسب الفهم الإسلامي حاجة إنسانية وليس تراكماً مفروضاً على الإنسان [فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله](1).

وعلى أساس ذلك فإنَّ الحياة الأصيلة هي التي يسعى فيها الإنسان لتحقيق دوافعه الفطرية الذاتية وتوفير استحقاقاتها، فإذا كان النزوع الاجتماعي يمثّل شعوراً ذاتياً لدى الإنسان فيجب توفير استحقاقاته ولا يكون ذلك من الأمور الاعتبارية الوهمية، وكذلك حينما يكون الإيمان بالله والارتباط بخالق هذا الوجود إحساساً فطرياً لدى الإنسان فإنَّه يجب العمل على تحقيق استحقاقات هذا الدافع الفطري من خلال أنماط العبادات والسلوكيات بين الإنسان وخالقه، وكذلك حينما تكون الحياة الأبدية همّاً من هموم الإنسان الذاتية فإنَّه يجب البحث عنها وتوفير استحقاقاتها، وعلى أساس ذلك يقول الإسلام: [وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً](2) في إشارة إلى الاهتمام بالقضايا الحقيقة جميعاً وليس هموم الدنيا وحدها.

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) البقرة: ٢٠١.

إنَّ السعادة من وجهة نظر الإسلام هي من خلال التوافق مع الحقيقة، وليس كما تقول الحداثة: (التوافق مع الذات فقط) غافلة عن أنَّ الاهتمامات الأخرى الاجتماعية والدينية والأبدية هي اهتمامات ذاتية حقيقية أيضاً.

وفي ضوء نظرية (التوافق مع الحقيقة) فإنَّ الله تعالى يمثّل حقيقة، والرسالات الإلهية تمثّل حقيقة، والمعاد يوم القيامة يمثّل حقيقة، كما أنَّ المجتمع الإنساني يمثّل حقيقة فلا بدَّ إذن من توفير جميع استحقاقات هذه القضايا وليس فقط البحث عن الدوافع الغريزية المادية للإنسان [يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ].[1]

الإسلام يقول: الحقيقة هي عبودية الإنسان لله، الإنسان ليس ربّاً في الأرض ولا يستطيع أن يقول للشيء كن فيكون، الإنسان جزء من منظومة كونية والله تعالى هو الذي يسيّر هذه المنظومة: [الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسانَ][2]، [الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ][3] عبودية الإنسان لله حقيقة، ومن لا يعترف بها سوف يتقاطع مع الحقيقة. الإسلام يرى أنَّ السعادة من خلال ركنين: الأوّل الإيمان، والثاني العمل الصالح.

الحياة الأصيلة في الإسلام هي الحياة التي تتقوَّم على الإيمان بالله ثمّ العمل الصالح كما قال تعالى: [وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ][4].

(1) الروم: ٧.
(٢) الرحمن: ١ - ٣.
(٣) الانفطار: ٧.
(٤) العصر: ١ - ٣.

كما أنَّ عمر الإنسان يمتدّ إلى الأبد [خالدِينَ فيها ما دامَت السَّماواتُ وَالأَرْضُ إلاّ ما شاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لما يُرِيدُ] (١). أعطاه الله عمراً أبدياً كي يلتحق إلى جوار ربّه، وهذه الحياة الدنيا هي حياة تمهيدية، وراءها حياة طويلة، والسعادة هي التوافق مع الحقيقة، هي أن تخضع لحقيقة وجود حياة أبدية يجب أن نعمل ونستعدّ لها.

الإسلام يقول: الدنيا هي حياة تمهيدية والحياة الأصيلة هي تلك الحياة التي يعيش بها الإنسان مع الحقيقة، لذا يجب الإعداد لما بعد الموت [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ] (٢)، [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبابِ] (٣) ومن ناحية أخرى الإسلام يقول: إنَّ الإنسان هو ابن مجتمعه، وليس صحيحاً أنَّ القضايا الاعتبارية الاجتماعية هي قضايا وهمية لا يجب الاعتناء بها؟ الله ميَّز الإنسان بحياة واعية هادفة ضمن مجتمع كبير يمثّل الحاضنة الأمّ بالنسبة للإنسان. والإسلام يقول: القضايا الاجتماعية الاعتبارية هي قضايا حقيقية وليست وهمية.

هذا العمل حرام أم حلال؟ هذا العمل مقبول عند الناس أم غير مقبول؟

الإنسان ابن الكيان الاجتماعي وليس ابن ذاته فقط ولا يعترف بشيء اسمه مجتمع، كلّ العالم يفكّرون بالاعتبارات كثيراً. السعادة هي عبارة عن التوافق مع الغرائز الذاتية والقيم الاعتبارية الحقيقية أيضاً.

* * *

---

(١) هود: ١٠٧.

(٢) الحشر: ١٨.

(٣) البقرة: ١٩٧.

الفصل السادس:

نظرية المعرفة

بين الفكر الحداثي والفكر الإسلامي

المعرفة الإنسانية هل هي معرفة مطلقة أم هي معرفة نسبية؟

وبعبارة أخرى: هل يمكن الثقة بالمعرفة الإنسانية والاطمئنان إلى صحَّتها أم أنَّها في كلّ الحالات هي معرفة نسبية غير يقينية ولا يمكن أن تعبّر عن حقيقة ثابتة لا تقبل الخطأ؟

تقول الحداثة: إنَّه لا يمكن شوق بأيّة معلومة مهما بلغت، وهذا هو ما نطلق عليه نظرية (اهتزاز المعرفة)، أو مبدأ (اللاثبات المعرفي) فقد تكشف الأيّام خطأ تلك المعلومة حتَّى وإن كانت اليوم بمستوى عالٍ من الوضوح والبداهة، فيما يقول الفكر الديني: إنَّ هناك حقائق ثابتة لا تقبل الجدل والشكّ وهي اليقينيات الكبرى في الدين وهي التوحيد والنبوّة والمعاد ومجمل المعارف التي تنتج عنها كما يؤكّد الفكر الديني قدرة العقل على الثقة المطلقة بمعارف يقينية لا تقبل الجدل مثل البديهيات العقلية والرياضية إضافة إلى الكثير من الحقائق الكونية.

الحقائق الجغرافية، والحقائق الطبّية، والفضائية، والاجتماعية، لماذا لا يوجد ثبات معرفي بهذه الحقائق؟ اليوم فإنَّ العالم كلّه قائم على أساس نظريات وقوانين ثابتة في الاقتصاد والصناعة والفيزياء والطبّ، فلماذا تفترض الحداثة أنَّ مبدأ اللاثبات واهتزاز المعرفة هو القانون الذي يحكم كلّ تلك المعلومات بمستوى أنَّه لا توجد معلومة نستطيع أن نعطيها حالة الثبات، وحتَّى الحسابات الرياضية مثل: (١ + ١ = ٢).

الحداثة تقول: حتَّى هذه القضيّة التي تعتبر من البديهيات الرياضية

لا يوجد فيها ثبات فضلاً عن القوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما شاكل ذلك.

هذا هو ما نريد مناقشته في هذا الفصل من البحث.

تقول الحداثة: كانت مجموعة المعارف و الأحكام يأخذها الإنسان من الوحي، معلومات ومعارف جاهزة يتسلّمها الناس من الوحي ولا يناقشونها ولا توجد هناك معلومات عن نظم الفضاء والأفلاك ولا معرفة بقوانين علم الاقتصاد والاجتماع والوراثة بل كانت هذه القضايا متروكة للقضاء الإلهي، وماذا يقول الوحي فيها، وهكذا كانت الأحكام التشريعية، كان الإنسان لا يشرّع لنفسه وإنَّما يأخذ التشريع جاهزاً... ما هو الحلال، وما هو الحرام، لقد كان الإنسان يعطى معارف جاهزة، وقوانين كونية جاهزة، وتشريعات جاهزة، وحين دخل الإنسان عصر النهضة اكتشف أنَّ هذه المعارف لا ينبغي أن نأخذها بوصفها معارف معلَّبة جاهزة لا تقبل الجدل، بل إذا جهدنا وحرَّكنا عقولنا فسوف نكتشف أنَّ القوانين الكونية تخضع لأسباب يمكننا معرفتها بل والتصرّف فيها. المطر يخضع لسبب، الرياح تخضع لسبب، الخسوف والكسوف يخضعان لسبب، الزلازل كذلك، هذه القضايا ليست قرارات جاهزة من عند الله تبارك وتعالى، بل لها أسباب ونحن نكتشف هذه الأسباب، وهكذا المعارف الفلسفية والعقائد الدينية، فلماذا نستلم معارف جاهزة؟ هناك سبع سماوات وعرش، وكرسي، واللوح المحفوظ، هذه معارف نسمّيها جاهزة، لكن علينا أن نحرّك عقولنا ونعرف ما هي الحقيقة فربَّما كانت تلك المعلومات غير صحيحة، وهكذا حتَّى نصل إلى التشريعات الدينية وما هو حلال وحرام، هذا مفيد وهذا غير مفيد، فإنَّ علينا أن لا نخضع لتشريع من خارج إرادتنا وفوق معلوماتنا.

الحداثة تقول: لا معارف ولا قوانين كونية ولا تشريعات جاهزة يصدّرها

الوحي، وإنَّما يجب أن نعتمد على العقل، وإذا اعتمدنا على العقل فإنَّ العقل لا يمنح وثيقة الثبات والإطلاق لأيّة معرفة مهما كانت بل إنَّها جميعاً قابلة للنقد والتغيّر، وهذا هو مبدأ (اللاثبات) و(اهتزاز المعرفة).

مشكلة العقل أنَّه متحرّك، هذه معارفنا يوم كانت معتمدة على الوحي، كانت معارف ثابتة، لكن حين جلست على كرسي العقل، فإنَّ العقل هو كرسي متحرّك فأصبحت المعارف متحرّكة. هذه هي نظرية المعرفة لدى الفكر الحداثي.

الدليل على نظرية اهتزاز المعرفة:

السؤال الآن: ما هو الدليل على اهتزاز المعرفة بشكل مطلق بحيث لا يمكن الوثوق إلى أيّة حقيقة مهما كانت؟ في الوقت الذي يقول الفكر الديني: إنَّ هناك معارف ثابتة عن طريق العقل، كما أنَّ هناك معارف ثابتة عن طريق الوحي.

يمكن أن تقدّم الحداثة دليلين على عدم ثبات المعرفة الإنسانية:

الدليل الأوّل: إنَّ العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة... وهذه مقدّمة أولى في الدليل. والمقدّمة الثانية في الدليل هي أنَّ التجربة العقلية متحرّكة وغير ثابتة، إذن فالنتائج ستكون كلّها متحرّكة، هذا هو الاستدلال الأوّل على أنَّ معارفنا كلّها معارف متحرّكة وربَّما تتغيَّر فلا يمكن الثقة المطلقة بها.

الحداثة تقول: إنَّ العقل هو مصدر المعارف وتجربة العقل هي تجربة مفتوحة أمام الأيّام ولا تقف على رؤية واحدة وكما اكتشفنا الخطأ في كثير من المعارف التي كنّا نحسب أنَّها عقلية فما يدرينا أنَّ باقي معارفنا العقلية ليست كذلك.

الـدليل الثـاني: إنَّ الـوحي الـذي يعتبـره الـدين مـصدراً ثانيـاً للمعرفـة هـو عبـارة عـن تجربـة عقليـة للنبـيّ والتجربـة العقليـة ليـست مطلقـة بـل هـي متغيّــرة ومتحرّكــة فــيمكن أن يــأتي نبــيّ آخــر أو تتطــوّر الخبــرة البــشرية فتعطينـا معلومـة أخـرى وحقيقـة أخـرى، وعلـى هـذا الأسـاس تكـون النتيجـة: إنَّ معارف الوحي غير مطلقة بل هي قابلة للتطوّر والتغيّر.

وفــي هــذا النقــد لــدليل العقــل والــوحي تقــول الحداثــة: إنَّ جميــع المعارف والتشريعات لا نستطيع أن نعطيها صيغة الثبات.

نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي:

يعتقـد الفكـر الإسـلامي أنَّ هنـاك معـارف ثابتـة وهنـاك معـارف متحرّكـة وذلك حسب المساحة التي يتحرّك فيها العقل والوحي فهناك ثبات في مساحة مـن المـساحات، وهنـاك تغيّـر ونـسبية ولا ثبـات فـي مـساحة أخـرى، إنَّ التجربـة العقلية البشرية قد تتغيّر وقد نكتشف خطأ بعض معلوماتنا لكن هل نستطيع أن نقـول: إنَّ جميع معلوماتنـا غيـر يقينيـة ولا يمكـن الوثـوق بهـا؟ نحـن نعتقـد ومـن وجهة نظر الأديان التوحيدية أنَّ مبدأ (اللاثبات المعرفي) و(اهتزاز المعرفة) هو مبـدأ قابـل للنقـد رغـم الاعتـراف بنـسبية المعرفـة وعـدم اسـتقرارها فـي مـساحات كثيـرة لكـن تعمـيم المبـدأ غيـر صـحيح، فهنـاك حركـة وتغيّـر معرفـي لكـن لـيس بمستوى أن يزلزل اليقين في كلّ معارفنا.

نقد نظرية اهتزاز المعرفة:

يمكن أن نسجّل على النظرية المناقشات التالية:

أوّلاً: النظرية بدون دليل:

تقــول الحداثــة: إنَّ العقــل هــو المــصدر الوحيــد للمعرفــة ولا يوجــد

لـدينا مـصدر آخـر. وحيـث كـان العقـل متحـرّك فالنتيجـة سـتكون متحرّكـة، وهـذا معنـاه أنَّ جميع معارفنـا متحرّكـة وغيـر ثابتـة ولا يمكـن الـسكون إليهـا بــشكل مطلــق. لكــن الــسؤال: مــن قــال: إنَّ العقــل هــو المــصدر الوحيــد للمعرفة؟ ولماذا لا يكون هناك مصدر آخر لمعارفنا؟

العلــم إذا أراد إثبــات حقيقــة فيجــب أن يقــدّم دلــيلاً، وإذا أراد أن ينفي حقيقة فيجب أن يقدّم دليلاً أيضاً.

وحـين تقـول الحداثـة: إنَّـه لا يوجـد أيّ مـصدر آخـر للمعرفـة سـوى العقـل فمـن حقّنـا أن نـسأل: مـا دليـل الحداثـة على ذلـك؟ الحداثـة تـدّعي أنَّ العقــل هــو المــصدر الوحيــد ولا يوجــد مــصدر آخــر للمعلومــة، إذن كــلّ معلوماتنـا العقليـة معلومـات متحرّكـة، ولكنَّهـا لـم تقـدّم دلـيلاً علـى ذلـك، ولـم تستطع أن تبرهن على نفي وجود مصدر آخر للمعلومات.

نحــن نعتقــد بثنائيــة المــصدر: العقــل والــوحي وهــو مــا يعبّــر عنــه بــ (الفكـر) و(الـذكر)، الفكـر هـو العقـل والـذكر هـو الـوحي وإذا كـان المـصدر الأوّل وهـو العقـل لا يتَّـسم بالثبـات فـي نتائجـه ومعارفـه فـإنَّ المـصدر الثـاني وهـو الـوحي يقـدّم لنـا معلومـات ثابتـة فـي دائـرة أخـرى، ومـساحات أخـرى، وذلـك المـصدر يقـول: أنـا مـصدر ثابـت أعطيكــم معلومـات ثابتـة لا تتغيَّـر فـي مجـال عـالم مـا وراء الـدنيا وهـو عـالم الغيـب. نحـن لا نملـك دلـيلاً علـى نفـي هـذه المعلومـة. والحداثـة لـم تقـدّم دلـيلاً ولا هـي قـادرة علـى تقـديم دليـل ينفـي حقيقـة المـصدر الثـاني للمعلومـات، الـوحي يقـول: أنـا أعطـيكم معلومـات ثابتـة لا تتغيَّـر لأنَّنـي لـم أكتـشفها مـن خـلال التجـارب بـل مـن الحقيقـة الوجوديـة العليـا وهـي الله تعـالى الـذي هـو مـصدر الوجـود، وإذا

كان المصدر الثاني وهو الوحي موسوماً بالثبات في المعلومة التي يقدّمها إذن سوف نملك معلومات ثابتة هي عبارة عن الحقائق الدينية.

وهذا الكلام كما هو صحيح في المعارف التي يزوّدنا بها الوحي كذلك هو صحيح في التشريعات التي يقدّمها الوحي، فالثوابت في التشريع الإلهي لا تنطلق من رؤية مؤقّتة، وواقع مرحلي للإنسان لكي تتغيَّر تلك التشريعات بتغيّر الزمان بل هي أحكام قائمة على واقع ثابت للإنسان، ومن هنا فهي أحكام ثابتة ما دام ذلك الواقع البشري ثابتاً.

ثانياً: تناقض النظرية:

ومن ناحية ثانية فإنَّ القول بأنَّ جميع المعارف العقلية هي معارف غير ثابتة ولا يمكن اعتبارها مطلقات فوق الزمان والمكان، هذا القول وهو المعبّر عنه بـ (نظرية اهتزاز المعرفة) هذا القول يناقض نفسه لأنَّ هذه المعلومة التي عنها يفترض أنَّها معلومة ثابتة فمن أين جاءت هذه المعلومة للعقل وكيف آمن بها وأعطاها الإطلاق إذا كانت كلّ المعارف العقلية غير ثابتة.

الفكر الديني والفلسفة التوحيدية تقول: لا يمكن للإنسان أن يتقدَّم في مساراته العلمية دون ثوابت عقلية، لا يمكن أن يبني بيتاً ثابتاً على رمال متحرّكة بل لا بدَّ من أن يبنيه على أرض صلبة... الحداثة حين تقول بمبدأ اللاثبات المعرفي فهي تفترض وجود مقولة ثابتة وهي نفس هذا المبدأ (مبدأ اللاثبات المعرفي) كما أنَّها حين تؤمن بأنَّ (العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة) فهي إذن تؤمن بمعلومة ثابتة وبهذا تكون قد ناقضت نفسها بنفسها.

العقل والوحي مصدران للمعرفة:

ماذا تقول الفلسفة التوحيدية؟

وماذا يقول الدين في نظرية المعرفة؟

تقول الفلسفة التوحيدية: إنَّ العقل هو المصدر الأساس للمعرفة.

العقل قادر على أن يكتشف مصدراً ثانياً يتحرَّك في مساحات أخرى غير منظورة للعقل.

العقل اكتشف مصدراً معرفياً مهمّاً هو الوحي، أي أوجد له معيّناً وشريكاً في المعرفة. وإذا كنت مثلاً المصدر الأساس لتأليف كتاب فقد تستطيع أن تحصل على شخص آخر يساعدك في التأليف، وسوف يكون للكتاب مؤلّفان رغم أنَّك أنت الأصل.

هنا نعتقد أنَّ العقل هو المصدر الأوّل للمعرفة، لكن هذا المصدر يمكن أن يطوّره الإنسان بحيث يكتشف مصدراً آخر للمعرفة فوق العقل وهو الوحي، والأنبياء اكتشفوا الوحي من خلال العقل واستخدموا العقل استخداماً عظيماً، استطاعوا أن يكتشفوا ما لم نكتشفه نحن، واستطاعوا أن يلتقوا بمصدر آخر.

مثلاً إذا كنت لا تستطيع بعينك المجرَّدة أن تكتشف آبار النفط تحت الأرض، لكن إذا استطعت أن تستخدم أجهزة كاشفة فهذه الأجهزة الكاشفة سوف تعينك على اكتشاف هذه الآبار النفطية.

وكما أنَّك لا تستطيع _ مثلاً _ رؤية الكائنات المجهرية لكن إذا استعملت عدسة المجهر فسوف تتمكَّن من رؤيتها، ولكن ذلك من خلال عينك بالطبع، فالأصل هي العين، عينك هي الأصل الذي استطعت من خلالها أن تستعمل أداة أخرى، واكتشفت بذلك معلومات أخرى.

نحن نقول: إنَّ العقل هو المصدر الأساس لكن هذا العقل يستطيع أن يكتشف مساعداً له وهذا المساعد هو الذي سمّاه الدين بالوحي.

وإذا أستطاع العقل أن يكتشف مصدراً آخر للمعرفة فهل يعني ذلك إلغاء العقل؟ كلا... نحن استخدمنا العقل استخداماً جيّداً واكتشفنا مصدراً ثانياً، هذا المصدر الثاني يتحدَّث عنه الأنبياء، والأنبياء يقولون: أيّها الناس، أيّها الإنسان، نحن بشر مثلك وعندنا أنَّ المصدر الأساس للمعرفة هو العقل لكن نحن اكتشفنا عالَماً آخر ولدينا مصدر آخر للتعرّف على وقائع ذلك العالم وهو الوحي الذي يعطينا معلومات جديدة ثابتة [قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً] (1)، [قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] (2)، [قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ] (3).

الفلسفة الدينية تقول:

العقل هو المصدر الأساس في المعرفة وليس هو المصدر الوحيد.

العقل يكتشف مصدراً آخر للمعرفة.

ذلك المصدر الآخر للمعرفة هو الذي يسمّيه الدين: الوحي.

الوحي يعطي معلومة ثابتة لا تتغيَّر ولا تقبل الخطأ.

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الأنبياء: ١٠٨.

(٣) فصلت: ٦.

أنظر إلى ما يقوله القرآن إزاء هذا المصدر الثابت: [قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ][1]، [وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ][2]، [ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ][3].

مساحة الوحي:

لكن مساحة الوحي هي مساحة خاصّة... وأنت الآن حينما تقرأ القرآن فأنت تعتمد على معلومات مأخوذة من الوحي، وهذه المعلومات ليست في الشأن الزراعي ولا الصناعي ولا الاقتصادي ولا ما هو من ميدان الخبرة البشرية.

إنَّما الوحي يتحرَّك على مساحتين: الأولى مساحة عالم الغيب. فالوحي حينما يتحدَّث عن يوم القيامة ومستقبل الوجود [إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها][4]، ويتحدَّث عن عالم ما وراء المادة، [الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيانَ][5]، أو يتحدَّث عن العرش [الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى][6]، أو يتحدَّث عن السماوات السبع قائلاً: [الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ][7] . هذا هو عالم الغيب،

---

(١) الجنّ: ١.
(٢) يونس: ١٠٩.
(٣) الإسراء: ٣٩.
(٤) الزلزلة: ١ و٢.
(٥) الرحمن: ١ - ٤.
(٦) طه: ٥.
(٧) الملك: ٣.

العالم غير المنظور، والوحي يتحدَّث عن العالم غير المنظور ويتحرَّك في دائرة اللامنظور، في دائرة الغيب، حيث يوجد لدينا عالم الغيب وعالم الشهادة، والوحي يتحدَّث عن الغيب اللامنظور [وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً](1)، ويتحدَّث عن [وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ](2)، [وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً](3)، هذا عالم غير منظور الوحي يحدّثنا عن عالم الغيب [فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ](4) هذه هي المساحة الأولى لحركة الوحي.

وأمَّا المساحة الثانية فهي دائرة ثوابت التشريع.

يقول الله تعالى: [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ](5)، هذا تشريع ثابت إلى الأبد. الوحي ينفعك في نظامك الاجتماعي ينفعك في كشف ما يضرّك وما ينفعك،

---

(1) النبأ: ١٩.

(2) ق: ٣١.

(3) الإسراء: ١٣.

(4) الحاقة: ١٩ - ٢٧.

(5) البقرة: ٢٧٥.

[يـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْـسِرُ وَالأَنْـصابُ وَالأَزْلامُ رِجْـسٌ مِـنْ عَمَـلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ][1]، وهذه الثوابت لا تصطدم مع العقل.

إذن المساحة الأولى هي عالم ما وراء الطبيعة وهي مساحة العقيدة، والمساحة الثانية هي عالم الثوابت التشريعية وهي مساحة الشريعة.

هذه هي خلاصة الرؤية الإسلاميّة في نظرية المعرفة.

* * *

(١) المائدة: ٩٠.

الفصل السابع:

مبادئ

الفكر الإسلامي

ذكرنا أنَّ الحداثة لها ثلاثة مبادئ: الذاتية، والعقلانية، والعدمية، وقد سبق أن ناقشنا هذه المبادئ الثلاثة، لكن السؤال المهمّ ما هي مبادئ الإسلام في مقابل مبادئ الحداثة؟

الحقيقة أنَّ الإسلام يؤمن بثلاثة مبادئ تقابل مبادئ الحداثة وهي:

مبدأ التوحيد في مقابل الذاتية.

مبدأ النبوّة في مقابل العقلانية.

مبدأ المعاد في مقابل العدمية.

وهذا ما نريد استعراضه.

أوّلاً: مبدأ التوحيد:

ذكرنا أنَّ مبدأ الذاتية له ثلاثة مداليل:

الأوّل: لا سلطة فوق الذات الإنسانية.

الثاني: لا سعادة إلاَّ من خلال منافع الذات.

الثالث: لا قيمة أخلاقية إلاَّ من خلال ما تحقّق من مكاسب شخصية للذات.

هذه المداليل الثلاثة سوف تنهار أمام مبدأ (التوحيد) الذي يؤمن بوجود خالق لهذا الوجود وله استحقاقات الربوبية على الإنسان.

في مقابل المدلول الأوّل وهو أن لا سلطة فوق الذات، يقول مبدأ التوحيد: [إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ][1].

ويقول تعالى: [إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ][2] أي: لي عليكم حقّ الطاعة فاعبدوني. وفي آية أخرى: [وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ][3].

ويقول: [قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ][4]، [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ][5]، وإذا كان الله خالق كلّ شيء إذن هو سلطة فوق كلّ شيء، وبالتالي سوف تنهار فكرة لا سلطة فوق الذات.

وقال تعالى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ][6] أي: أنا ربّكم شرعت لكم منهجاً وشرعت لكم الدين، إذن هل يوجد سلطة فوق الذات أم لا يوجد سلطة فوق الذات؟ في الرؤية الدينية توجد

(١) الأعراف: ٥٤.
(٢) الأنبياء: ٩٢.
(٣) المؤمنون: ٥٢.
(٤) الرعد: ١٦؛ الزمر: ٦٢.
(٥) الزمر: ٦٢.
(٦) الشورى: ١٣.

سلطة فوق الذات وهناك انسجام بين هذا العابد و بين ذاك المعبود، بين هذا العبد وهذا الربّ، إذن ليس هناك مسألة عداء. بل انسجام بين العبد وربّه، وهذه العلاقة هي ما يرسمه مبدأ التوحيد.

أمَّا المدلول الثاني في مبدأ الذاتية فيقول: لا سعادة إلاَّ من خلال منافع الذات، والإسلام يقول: السعادة هي السعادة الأبدية وليست هذه المنافع المؤقّتة. يعني: أيّها الإنسان: من المؤسف أن يكون عمرك أربعين سنة أو خمسين ثمّ تنتهي إلى لا شيء، وأنت وراءك حياة أبدية وسعادتك الحقيقية هي في سعادتك الأبدية، هذا تكريم للإنسان وليس اضطهاداً، والاضطهاد هو أن ينتهي الإنسان بعد هذا العمر إلى طعام للديدان وينتهي الأمر، هذه إهانة للإنسان إذا كان بدون حياة أبدية، وهي سعادة الدار الآخرة وذلك هو الفوز المبين. هذا أوّلاً.

ثانياً: كيف تتحقَّق السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة؟ الإسلام يرى أنَّ السعادة ليس طريقها منافع الذات فقط. وإنَّما طريقها الاهتداء بالمنهج الإلهي. فهو يحقّق منافعك، ولكن ليس منافعك المؤقّتة بالضرورة، فقد تكون في دنياك معذّباً فيوسف C وهو نبيّ قال: [رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ][1]، لأنَّني لم أحصل على منافعي في الدنيا فأصبح سجيناً لكن من أجل منافعي في الحياة الأبدية قلت: [رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ] إذن يجب أن تفكّر في السعادة الدائمة. وهذه السعادة الدائمة تتحقَّق من خلال الهدى الأكبر، وليس من خلال المنافع، هذه هي رؤية الإسلام.

---

(١) يوسف: ٣٣.

ونقرأ هنا بعض الآيات القرآنية لبيان هذا المعنى:

قال تعالى: [قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ][1]، فالهدى والنجاح ليس بمقدار ما تأكل وتشرب، بل بمقدار ما أنت مرتبط بالمنهج الإلهي الذي نتيجته الفلاح والنجاح.

يقول الله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ][2] وأفلح يعني: سَعَد.

[قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ][3].

ويقول النبيّ محمّد 9 أوّل ما بُعث إلى قريش: «قولوا: لا إله إلاَّ الله تفلحوا»، يعني أنَّ السعادة والفلاح بالتوحيد وليس بهوى النفس.

وهكذا القرآن الكريم يقول: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى][4]، فالذي يعرض عن ذكر الله ويعيش حياة الحيوانات، وحياة المنافع الذاتية بلا قيم. له في الدنيا معيشة ضنكاً [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]، والقرآن الكريم يقول: [يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا][5]، يعني أنَّ السعادة العظيمة بإطاعة الله ورسوله وليس بالمنافع الذاتية.

ويقول: [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

---

(١) النور: ٥٤.

(٢) المؤمنون: ١.

(٣) المؤمنون: ١ و٢.

(٤) طه: ١٢٤.

(٥) الأحزاب: ٧١.

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ...] إلى أن يقول: [أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ](1)، والفلاح ليس بالمكاسب والمنافع الدنيوية المادية الأنانية.

ويقول أيضاً: [وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ](2)، أي: حينما تريد أعظم فوز فهو أنْ تكون ناجياً يوم القيامة من عذاب النار وهذه السعادة لا يربحها الإنسان إلاَّ من خلال الهدي الإلهي وفي هذا السياق عشرات الآيات القرآنية.

يقول تبارك وتعالى: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ](3)، إذن السعادة هناك وليس بمقدار ما أكله في الدنيا.

وفي آية أخرى يقول: [قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ](4)، والفوز العظيم هو هذا التراضي بين العبد وبين الله تبارك وتعالى.

وعلى هذا الأساس فإنَّ مقولة الذاتية: إنَّ لا سعادة إلاَّ من خلال منافع الذات وأرباح الذات، هذه المقولة يرفضها الإسلام، الإسلام له مقولة تقابلها، ومبدأ التوحيد يعطي مقولة أخرى يقول: السعادة هي رضوان من الله أكبر هذا ثانياً.

---

(١) البقرة: ٢ - ٥.

(٢) غافر: ٩.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) المائدة: ١١٩.

وثالثاً: الذاتية قالت: لا توجد قيمة أخلاقية ثابتة بل هي بمقدار ما تحقّق من منافع للشخص، فما يحقّق لك المنافع فهو الحسن، والذي لا يحقّق لك منافع فهو القبيح، نحن نقول: الصدق شيء جيّد والكرم شيء جيّد. ويأتي الإسلام ويقول: إنَّ هذه القيم الأخلاقية هي قيم ذاتية، وهي تحقّق منافع للإنسانية بالتأكيد، ولولا هذه القيم الأخلاقية لتحوَّلت المجتمعات الإنسانية إلى مجتمعات غابة، نعم فهاهنا منافع عامّة للإنسان والإنسانية في هذه القيم الأخلاقية ولكنَّها ليست بالضرورة أن تحقّق منافع ذاتية لك بالذات، بل هي تحقّق منافع كبرى للإنسانية. هذه القيم الأخلاقية هي قيم واقعية لا ينظر لها من منظار شخصي بل من زاوية أكبر هي زاوية المجتمع، من زاوية ما هو حقّ.

والإسلام يؤكّد، مفهوم الحقّ ويقابله الباطل، وهذا ما لا تعترف به الحداثة، الإسلام يقول: في هذه الحياة هناك أمور هي حقّ، بغضّ النظر عن مقدار اكتسابنا منها، أو عدم اكتسابنا ربحاً منها، فهي حقّ، وهناك أمور هي باطل، أمور حسنة وأمور قبيحة، فالإسلام يقول: هناك حقّ وباطل وهناك هوى في مقابله هدى، فالهوى هي الغرائز المطلقة المنفلتة والهدى هو توجيه تلك الغرائز، والإسلام لا يقول: يجب أن تسحق الهوى بل يقول: يجب أن يكون هواك موجّهاً.

القرآن يقول: [فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ][1]، هوى من غير هُدى من الله، إذن الإسلام ذكر لنا مفهوم الهوى ومفهوم الهدى، هذه المفاهيم غير موجودة في الحداثة.

---

(١) القصص: ٥٠.

وعلى هذا الأساس يقول الإسلام: إنَّ هذه القيم هي قيم أخلاقية ثابتة في نفسها بقطع النظر عمَّا تحقّق لك من منافع ومكاسب.

لاحظوا قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ](1)، فالله تعالى يقول: أنا آمر بقيم ثابتة، وهذه قيم إيجابية.

ربَّما حين تقوم بهتك الآخرين تحصل على مكاسب نفعية لكن القرآن الكريم يقول: هتك الآخر يمثّل قيمة سالبة لا تراها بعينك، وهي بمثابة أكل لحم أخيك وهو ميت. وأنتم لا ترون هذه الحقائق، لكن الوحي يقول: أنا أشرح لكم هذه الحقائق وهذه حقائق ثابتة بقطع النظر عمَّا تحقّقها لكم من منافع عاجلة [وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ](2).

وهكذا يقول: [قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ](3) والقسط: العدالة، وهي قيمة ثابتة. ومثل ذلك الصدق حيث يقول تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ](4) فليس المقياس أن تنتفعوا من الدنيا أو لا تنتفعوا، الحداثة تقول: إنَّ لا قيمة أخلاقية إلاَّ عبر منافع الذات، والإسلام يقول: القيمة الأخلاقية فوق الذات، وأنت يجب أن تغسل ذاتك بالقيم الصحيحة وتبعد عنها القيم السلبية.

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) الأعراف: ٢٩.

(٤) التوبة: ١١٩.

(إنَّ الله يُحبّ الصادقين) هذه قيمة إيجابية، والله الذي هو الحقيقة المطلقة يريد هذه القيم الذاتية الأخلاقية، ويرفض تلك القيم الأخلاقية السلبية. إذن مقولة لا قيمة أخلاقية إلاَّ من خلال منافع الذات مرفوضة، الإسلام يقول: هناك خالق لهذا الوجود وهو حقّ وذاك الحقّ هو الذي قرَّر هذه القيمة الأخلاقية سلبية أو إيجابية. الحقّ هو الذي يقيّم تلك القيم وليس منافعك الذاتية. هذا هو مبدأ التوحيد واستنتاجاتنا في مبدأ التوحيد مقابل مبدأ الذاتية.

الإسلام يقول: أيّها الإنسان لست أنت المطلق إنَّما الله هو المطلق، ومعنى المطلق هو الذي لا حدود له، وهو الأكبر الذي ليس فوقه شيء، وأنت لست المطلق، بل أنت تمشي في هامش الوجود [لَخَلْقُ السَّماوات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاس][1]، إذن الإنسان فقير وأنت وجدت بعد مئات ملايين السنين من تكوّن هذه الكرة الأرضية التي هي بمنزلة ذرّة رمل مقابل بحر السماوات الواسع، فكيف تعتبر نفسك أنت المطلق [وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً]؟[2] أنت محدود. والله هو المطلق، الحقيقة الكبرى التي تسيّر هذا الوجود كلّه.

الحداثة وصلت إلى مقولة: (موت الإله)، قالوا: مات الإله، وليس هناك إله، وما بعد الحداثة جاؤوا وقالوا: الإنسان مات. ويأتي الإسلام الذي لا يقبل بموت الإله ولا موت الإنسان وإنَّما هي معادلة تركيبية جميلة بين الله وبين الإنسان، الإسلام لا يريد أن يقتل الإنسان. وإنَّما

---

(١) غافر: ٥٧.

(2) الإسراء: ٣٧.

هنـاك عبوديـة الإنـسان، وربوبيـة الله، ومـن خـلال هـذه الربوبيـة وهـذه العبوديـة تنـشأ الحيـاة الـسعيدة الجديـدة، ونحـن لـسنا مـع مـوت الإلـه، ولا نحن مع موت الإنسان، فالإنسان في الإسلام له حرّيته وكرامته، وهو عبد مكـرَّم عنـد الله تبـارك وتعـالى، ولكـن بـدلاً مـن أن نقـول: مـوت الإنـسان، نقـول: عبوديـة الإنـسان، هـذا الإنـسان المكـرَّم بمقـدار ارتباطـه مع الله يكـون مكرَّماً.

ثانياً: مبدأ النبوّة:

لقـد كـان المبـدأ الثـاني مـن مبـادئ الحداثـة هـو مبـدأ العقلانيـة. والعقلانيـة تقـول: نحـن لا نقبـل شـيئاً ولا حقيقـة ولا معلومـة إلاَّ إذا اسـتطعنا أن نفسّرها بعلومنـا ومعارفنـا وتجربتنـا. والعقـل هـو العقـل الـذي يحـصل مـن خلال التجربة أو الممارسة المادية، هذا هو مبدأ العقلانية.

ولقـد سـبق مناقـشة مبـدأ العقلانيـة، والإسـلام يـؤمن بمبـدأ آخـر يقابـل مبدأ العقلانية المادية وذلك هو مبدأ النبوّة.

الإسـلام يعتقـد أنَّ هنـاك فكـراً وهنـاك ذكـراً، فـالقرآن ذكـر [وَإِنَّـهُ لَـذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ وَسَـوْفَ تُـسْأَلُونَ][1]، يعنـي: الإسـلام يعتقـد بثنائيـة المـصدر المعرفـي للإنـسان ولـيس بأحاديتـه، والثنائيـة هـي الفكـر والـذكر، الإسـلام يـؤمن بـأنَّ العقـل مـصدر أسـاس مـن مـصادر المعرفـة لكـن لـيس علـى سـبيل الأحاديـة والتفـرّد بـل علـى سـبيل الثنائيـة فهنـاك شـيء آخـر وهـو مـصدر مهـمّ عظـيم مـن مـصادر المعرفـة اسـمه الـوحي (وهـو الـذكر) وهـذه الثنائيـة بـين العقـل والـوحي هـي فـي مقابـل مبـدأ تفـرّد العقـل الحـسّي بالمعرفـة وهـو مـا

(١) الزخرف: ٤٤.

كان يقصد بـ (العقلانية)، الإسلام يقول: هناك مساحات لا يصلها العقل البشري، وأنا أعطيكم مصباحاً آخر ومجسّات تعبر الفضاء وتكشف لكم ما وراء عالم الشهادة، هذا هو مصدر المعرفة الثانية وهو عبارة عن الوحي.

النظرية الإسلاميّة تقول: إنَّ المعلومة الصحيحة هي تلك المعلومة التي نصل إليها من خلال العقل أو من خلال الوحي، فإذا كانت هذه المعلومة في دائرة متناولنا البشري فسوف نكشفها بالعقل، وإذا لم تكن هناك فسوف نكشفها بالوحي، إذن مبدأ العقلانية سوف يقابله مبدأ النبوّة، وهذه النبوّة التي هي عبارة عن أنَّ الله أرسل رسولاً، فهذا الرسول يقول: إضافة إلى فكركم فهناك ذكر، والذكر يكشف مساحات ما وراء عالم الدنيا، والفكر غير قادر على ذلك. وهنا تأتي الشريعة الإلهية التي تخدم البشرية على طول تاريخها.

الإنسان ابن اليوم، كيف يستطيع أن يكشف ما هو التشريع الصحيح وما هو الذي يخدم البشرية عبر آلاف السنين؟ حدود الزمان أوسع من الإنسان وبالتالي فهو يحتاج إلى سلطة وعقل وإدراك أكبر من إدراكه، ذلك هو الله تبارك وتعالى المحيط بكلّ شيء، وبذلك نجمع بين العقل وبين الوحي، وهذا الجمع هو الذي يوفّره مبدأ النبوّة. القرآن الذي يقول: [وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ][1] أي: إنَّ لديكم فكراً، ولكن تحتاجون إلى جانبه ذكراً.

والأحاديث الشريفة تقول: «إنَّ لله على الناس حجَّتين حجّة ظاهرة

(١) القلم: ٥٢.

وحجّة باطنه»[١] يعني دليلين: حجّة ظاهرة وهي الرسل والأنبياء، وحجّة باطنة وهي العقل.

يقول القرآن الكريم: [فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ][٢] أي: أنت لا يحقّ لك أن تقول: أنا أقبل العقل فقط. بل هناك أداة يجب أن تستمسك بها. [وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ][٣].

يوم القيامة يقول الكافرون: [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ][٤]، إنَّنا كنّا نملك أداتين: أداة الذكر التي كان يجب أن نستمع إليها، مثل القرآن، التوراة، الإنجيل، عن طريق الأنبياء، ولكنَّا لم نسمعها، وأداة العقل كان علينا أن نستفيد منها، ونحن لم نستفد من هاتين الأداتين. أي أنَّنا خسرنا الاثنين. إذن حيث لم تستفد من العقل في بعض المساحات فاستمع إلى ما يوحى إليك وخذه جاهزاً.

ثالثاً: مبدأ المعاد:

وفي مقابل المبدأ الثالث للحداثة وهو العدمية يقف مبدأ (المعاد يوم القيامة) في الفكر الإسلامي.

ماذا تقول الحداثة؟ تقول بمبدأ العدمية، أي: لا هدف وراء الكون والإنسان، فالكون والإنسان هما نتاج الحركة العمياء لهذا الوجود، فمرَّة يصير ديناصوراً ومرَّة إنساناً، ومرَّة نملة أو فيلاً، والكون عبارة عن

---

(١) أنظر: تحف العقول: ٣٨٦.

(٢) الزخرف: ٤٣.

(3) يونس: ١٠٩.

(٤) الملك: ١٠.

انفجارات ثمّ تصير نجوماً ثمّ تموت، انفجارات عمياء من دون أن يكون وراءها تخطيط ولا عقل ولا هدف.

فما هو مدلول مبدأ العدمية؟

لا هدف وراء خلق الكون.

لا هدف وراء خلق الإنسان.

هذا هو معنى العدمية حسب نظرية الحداثة.

يأتي الإسلام ويقول: الكون له هدف والإنسان له هدف، الكون يسير باتّجاه صحيح له نهاية والإنسان أيضاً يسير باتّجاه صحيح وله نهاية، فلا الكون مخلوق عبثي ولا الإنسان مخلوق عبثي، لا الكون ينتهي إلى لا شيء ولا الإنسان. إنَّما يصير الكون مرَّة أخرى ويعود إلى الحقيقة الأبدية [إِلى اللّه تَصيرُ الأُمُورُ][1]، والإنسان يعود مرَّة أخرى إلى الحقيقة الأبدية [أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ][2]، و[كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ][3].

وهذه السماوات والأرض مخلوقة بهدف وليست بلا هدف والإنسان كذلك.

يقول القرآن الكريم: [قُلْ أَمَرَ رَبّي بِالْقِسْطِ وَأَقيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ][4] أي لكم بدايةَ ولكم نهاية. والنهاية هي عبارة عن العودة إلى الله تبارك وتعالى.

وقوله: [يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ][5] إذن أنت

(١) الشورى: ٥٣.
(٢) المؤمنون: ٦٠.
(٣) الأعراف: ٢٩.
(٤) الآية السابق.
(٥) الانشقاق: ٦.

تتحرّك باتّجاه هادف وليس باتّجاه أعمى، [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ][1] إذن هناك هدف وراء الخلق.

ويقول تبارك وتعالى: [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ][2] أي أنتم مخلوقون لهدف. وتعيشون حياة أبدية.

ولكن قد يسأل سائل: هذه السماوات والنجوم والكون هل له هدف؟

القرآن الكريم يقول: نعم هذا الكون الواسع الفسيح اللامتناهي أيضاً ليس مخلوقاً عبثاً ولا لعباً ولا مهزلةً، وإنَّما هو مخلوق على وفق هدفية وأنَّه سوف يعود مرَّة أخرى إلى الحقيقة المطلقة فينسجم معها ولا ينتهي إلى لا شيء. فمثلاً هناك شيء يتفجَّر ويذهب إلى لا شيء، ومرَّة يتفجَّر ليكون شيئاً آخر. مثل الماء الذي يتبخَّر فيصير سحاباً، والسحاب مرَّة أخرى يعود ماءً. إذن هذه حركة هادفة وليس تبديداً للطاقة، القرآن الكريم يقول: [ما خَلَقْنَا السَّماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ][3]، أي أنَّها مسيرة مرسومة للسماوات والأرض، توجد مسيرة لها بداية ولها نهاية، وهي مسيرة واحدة واعية، وعليه فهذه هدفية وليست عبثية.

[قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ][4]، ليس البشر وحدهم بل كلّ ما في الكون في

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) الأحقاف: ٣.

(٤) يونس: ٣٤.

السماوات والأرض يرجعون إلى الله تبارك وتعالى، وهذا معناه أنَّ الكون مخلوق لهدف والإنسان كذلك.

المشهد الفلسفي حسب الرؤية الدينية:

الدين يقدّم منظومة فكرية متكاملة تجيب على جملة كبيرة من أسئلتنا. والدين يحرِّض على السؤال وعلى الاكتشاف، وأن ندرس بعمق فلسفة حياة الإنسان وفلسفة الكون بأكمله. وهذا من نقاط الافتراق الكبيرة بين الدين وبين مناهج الحداثة على الطريقة الغربية، فالدين يفتح أفقاً واسعاً لمعرفة جوهر الحياة، وهذا ما يهمّنا في تربيتنا الدينية الإسلاميّة، وممَّا يعطينا المزيد من الاطمئنان بخلاف ما وصل إليه الإنسان الغربي من بؤس، فأزمة الإنسان الغربي نشأت نتيجة للطريقة الخاطئة في كيفية التعامل مع الوجود، والاطمئنان لدى الإنسان المسلم نشأ من الطريقة الصحيحة في التعامل مع الوجود.

الإسلام يعطي جواباً لسؤال (لماذا؟) ولا يترك الإنسان حائراً وبدون قرار.

فالسؤال من أين جاء الإنسان؟

يقول الدين: **[فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحي]**[(١)].

إلى أين ينتهي الإنسان؟

الجواب: **[وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى]**[(٢)].

متى تنتهي الدنيا؟ وتقوم القيامة؟

---

(١) ص: ٧٢.

(٢) النجم: ٤٢.

الجواب: [يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاّ هُوَ][1].

ماذا بعد هذه الحياة؟

الجواب: [وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ][2].

ماذا نعمل في هذه الحياة؟

الجواب: [اعْمَلُوا صالِحاً][3].

كيف النجاة مع هذا الكون المتلاطم المجهول؟

الجواب: [هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ][4].

وماذا يُراد من الإنسان ولماذا خُلِق؟

الجواب: [الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزيزُ الْغَفُورُ][5].

من يرزقنا؟

الجواب: [إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتينُ][6].

ما هي الروح التي تعيشُ فينا؟

---

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) المؤمنون: ١٠٠.

(٣) المؤمنون: ٥١؛ سبأ: ١١.

(٤) الصف: ١٠.

(٥) الملك: ٢.

(٦) الذاريات: ٥٨.

الجواب: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً][1] أي هي شأن إلهي لا يمكن اكتشافه بالأدوات المادية.

هل يملك الإنسان إرادة خارج القرار الإلهي؟

الجواب: [وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً][2]، [وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ][3]

هل نستطيع البقاء في الحياة الدنيا؟

الجواب: [كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ][4]، و [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ][5].

ما هي علومنا وما قيمتها؟

الجواب: [وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً][6].

ما هذه الدنيا وموقعها بالنسبة إلى كلّ الوجود الكوني الشامل؟

الجواب: [وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ][7]، [وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ][8]، [إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ][9]، [اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ][10].

---

(١) الإسراء: ٨٥ .

(٢) الإنسان: ٣٠.

(٣) التكوير: ٢٩.

(٤) الرحمن: ٢٧.

(٥) آل عمران: ١٨٥؛ الأنبياء: ٣٥؛ العنكبوت: ٥٧.

(٦) الإسراء: ٨٥ .

(٧) الأنعام: ٣٢.

(٨) العنكبوت: ٦٤.

(٩) محمّد: ٣٨.

(١٠) الحديد: ١٩.

لماذا خُلقنا هل للعذاب أم للرحمة؟

الجواب: [إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ][1] أي للرحمة.

وماذا سيحصل في المستقبل؟

الجواب: [وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ][2].

هل الوجود المطلق يسمعنا أم خلقنا وقذفنا وراء المحيطات والبحار؟

الجواب: [وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ][3]، [الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ][4].

ومن هو الطبيب الذي يعافينا إذا مرضنا؟

الجواب: [وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ][5].

ومن هو الحبيب الذي يجب أن نتعلَّق به ونطوف حوله؟

الجواب: [وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ][6].

أين تذهب هذه الأعمال؟

الجواب: [إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ][7]، [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ][8].

إلى أين المفرّ؟

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) الشعراء: ٢١٨ و٢١٩.

(٥) الشعراء: ٨٠.

(٦) البقرة: ١٦٥.

(٧) الجاثية: ٢٩.

(٨) الزلزلة: ٧ و٨.

الجواب: [فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ][1]، وهذا الفرار من كلّ شيء، من الفوضى والاضطراب.

ما هو الزاد؟

الجواب: [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبابِ][2].

هل من رقيب يراقب حركاتنا؟

الجواب: [ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ][3].

إنَّ المنظومة الفكرية التي يوفّرها المنهج الإسلامي تجعل حياتنا مبنيّة على أُسس علمية وليس على عدمية أو فراغ.

* * *

---

(١) الذاريات: ٥٠.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) ق: ١٨.

الفصل الثامن:

الدين

بين الفكر الحداثي والفكر الإسلامي

لقد تناولت الحداثة عدّة مجالات بالبحث والنقد وفقاً للمبادئ التي آمنت بها، تناولت التاريخ والتراث، كما تناولت الدين والفلسفة، كما تناولت الأدب والفن، كما تناولت المرأة والإنسان، إلى غير ذلك من المجالات، ونحن سنحاول مناقشة رؤية الحداثة في جميع تلك المجالات مبتدئين بالبحث عن الدين[1].

ما هي رؤية الحداثة، ثمّ ما هي رؤية الإسلام إزاء الدين والمؤسّسات الدينية؟

الدين بين الحداثة والإسلام:

هذا الأمر نستطيع أن نوضّحه بدراسة الرؤيتين: رؤية الحداثة ورؤية الإسلام من خلال ثلاث نقاط:

الأولى: الدين تجربة بشرية أم وحي سماوي؟

الحداثة تقول: إنَّ الدين هو تجربة شخصية مارسها الأنبياء حاولوا أن يكتشفوا فيها رسالة الله. بمعنى أنَّه كما هو العلم اليوم في مجال الطبّ والفيزياء، والكيمياء، والفضاء، حيث إنَّ هذا الإنسان استطاع بجهده أن يكتشف نظرية معيّنة، ثمّ يأتي الآخر ويطوّر تلك النظرية دون أن تمثّل وحياً سماوياً، بل هي جهد علمي قام به الفيلسوف والمهندس والطبيب، أو الفضائي... الخ.

هذه نسمّيها التجربة الشخصية، إذن ليست هي تجربة مقدَّسة ولا مطلقة، بل هي تخضع للخطأ والصواب.

---

(1) يجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الفقرة الدراسية الجامعية لم تسمح باستمرار هذه المحاضرات لاستيعاب كلّ البحوث أعلاه، فاكتفى سيّدنا الأستاذ بالبحث عن (الدين بين الحداثة والإسلام.

الحداثة تقول: إنَّ الأنبياء أناس صالحون، وفي قمّة الصلاح، وبمستوى عالٍ من العبقرية، ولكن الدين هو تجربة شخصية خاضعة لأولئك العباقرة الأنبياء الذين كشفوا لنا معلومات ورؤى معيّنة، لكن هذه الرؤى تمثّل تجربتهم الشخصية وفهمهم المحدود لعالم السماء، وليست هناك تجربة مقدَّسة ولا معلومات منزَّلة من السماء لا نقاش فيها. ومعنى هذا أنَّك غير ملزم بما يقوله النبيّ لأنَّ ما يقوله النبيّ هو تجربته الخاصّة وممكن أن تكون تجربتك أنت أكثر تطوّراً بعد ألف سنة أو مئة سنة وتكتشف حقائق أكبر من تلك التي أكتشفها النبيّ، لأنَّ التجارب الشخصية ليست مطلقة ولا تنتهي إلى حدّ، كما العلم يتطوَّر كذلك الدين يتطوَّر هذه هي رؤية الحداثة عن الدين... فماذا يقول الإسلام؟

الإسلام يقول: إنَّ الدين ليس تجربة شخصية للنبيّ كما هي الجهود والتجارب العلمية للعلماء والمخترعين والفلاسفة وإنَّما هو رسالة إلهية، إذن هي معلومات مقدَّسة لا تقبل الخطأ، وهي ليست اجتهادات شخصية ونحن مسؤولون عن اتّباعها والالتزام بها. وهذا هو الفرق بين الإنسان المؤمن والإنسان غير المؤمن... فالمؤمن هو ذلك الذي يعتقد بأنَّ رسالة النبيّ هي رسالة إلهية منزَّلة من عند الله وهذا الكلام الذي جاء به النبيّ ليس تجربة شخصية... وإنَّ معنى النبوّة أنَّ هذا النبيّ يتحدَّث عن الله تبارك وتعالى، وأنَّ الله تعالى قد أوحى إليه...

لاحظوا قول القرآن: [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ] (1)، [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ

---

(1) الإسراء: ٣٩.

نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِه إِبْراهيمَ وَمُوسى وَعيسى أَنْ أَقيمُوا الدّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ] (١) يعني: الله شرع لكم وليس موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم، بل الله تعالى شرع ذلك إذن هذا ليس تجربة شخصية بل هو صوت من السماء وهو رسالة الله تعالى: [الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ] (٢) أي: هذا القرآن هو صوت الرحمن وليس تجربتك الشخصية، نعم... أنت تستقبل هذه التجربة، وأنت بمثابة الحاضن لهذه التجربة، ولكن صاحب هذه الرسالة هو الله [الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ]، [وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً] (٣)، حتّى أنت أيّها النبيّ مكلّف أن تخضع لهذه العطاءات السماوية تلتزم بها. ومعنى هذا أنَّ المسار سيفترق هنا بين الحداثة في رؤيتها للدين وبين الإسلام. وستجد نفسك في رؤية الحداثة غير ملزم بالمعتقدات الدينية، في حين سوف تجد نفسك في الرؤية الإسلاميّة ملزماً بها ، فيجب أن تؤمن بالله ورسوله والمعاد والملائكة، وجبرائيل وميكائيل، ولا يجوز لك أن تكذّب ذلك لأنَّه وحي السماء، وهناك تشريعات إلهية مثل: [الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّه فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ] (٤)، هذا تشريع إلهي مقدَّس،

(١) الشورى: ١٣.
(٢) الرحمن: ١ و٢.
(٣) الأحزاب: ٢.
(٤) البقرة: ٢٧٥.

والحداثة تقول فيه: إنّ ذلك تجربة شخصية خاضها النبيّ في زمان رأى أنّ الربا عبارة عن ابتزاز أموال الفقراء، لكنَّه في زماننا قد يكون الربا مشروعاً اقتصادياً عظيماً.

في الفكر الإسلامي فإنّ الدين يمثّل وحياً سماوياً، وإذا كان ثَمَّة اختلاف بين دين ودين فإنّ ذلك لا يعود إلى بشرية الدين بمقدار ما يعود إلى انسجام الدين مع الواقع البشري.

والحداثة في هذا الشأن تقول: الدين هو تجربة بشرية فقط أمَّا الوحي فهو عبارة عن إيحاءات متأثّرة بالبعد البشري للنبيّ.

الثانية: هل يوجد مقدَّس فوق النقد؟

إخضاع جميع المقولات الدينية إلى النقد، ولا توجد هناك دائرة الممنوع عنه وغير المسموح التفكير فيه، ودائرة المسكوت عنه بل إنَّ كلّ فكرة يقدّمها الدين يجب أن تخضع للنقد والنقاش، ولا يوجد شيء اسمه أبواب مغلقة مكتوب عليها ممنوع الدخول للفكر والتحقيق الإنساني، سواء في ذلك المسائل الاعتقادية أم المسائل التشريعية، وحينئذٍ فمن حقّ الفكر البشري أن يقبل ما يشاء ويرفض ما يشاء.

والحداثة تقول: لا توجد محرَّمات فكرية ولا نظريات من فوق العقل البشري. فماذا يقول الإسلام في هذا الموضوع؟

يقول الإسلام: نعم لا توجد محرَّمات فكرية في الدين ولا يوجد ما لا يجوز البحث عنه، والفكر الإنساني حرّ في نقد جميع المعتقدات وجميع التشريعات من أجل الوصول إلى الحقيقة لكن يجب أن نميّز بين مسألة الفكر ومسألة الاتباع، مسألة النقد ومسألة العمل.

الإسلام يقول: إنَّ العلم هو المقياس: [وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً] (١)، فالشيء من غير قناعة علمية لا تتّبعه، إذن لا توجد دائرة نغمّض عيوننا عنها ونقبلها... كلا، نستطيع أن نقول: لا يوجد محرَّم فكري حتَّى في أعمق المفاهيم الدينية.

ولكن الفرق بين الإسلام والحداثة هو أنَّ الحداثة تقول: إنّي أرفض أيّة معلومة لم يثبت لدى الخبرة البشرية والتجربة الفكرية للإنسان، أمَّا الإسلام فيقول: إذا لم تصل للمعلومة من خلال فكرك آمِن بما جاءك من عند الله، اعتمد على الوحي، وخذ المعلومة من السماء، إذن النقد حرّ ولا توجد عندنا محرَّمات فكرية وإنَّما المحرَّم هو الإنكار والجحود.

إنَّ دائرة النقد مفتوحة في الإسلام، ولكن لا يجوز لك أن تنفي أو تشكّ في معلومة جاءتك بطريق الوحي ولا يجوز أن تكذب بما جاء من الله تعالى.

هذا هو معنى أنَّ الدين لا يرفض النقد، بدليل أنَّ بعض الأنبياء [مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (٢) هذه هي الرؤية الإسلاميّة في النقطة الثانية.

جاء رجل إلى الإمام الصادق C وقال له: هل يستطيع الله أن يضع العالم في بيضة؟ فلم يقل له الإمام: اتّق الله، ولا تسأل، وهذا حرام،

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

واستغفر الله، واسجد وتبْ... بل قال له: الله قادر لكن ما سألت عنه لا يكون[1].

الإمام يريد أن يقول: إنَّ المشكلة ليست مشكلة قدرة الله إنَّما هي مشكلة البيضة، الله على كلّ شيء قدير، لكن الذي تسأل عنه شيء مستحيل، فالمشكلة ليست في قدرة الله... وهذا جواب أدبي وعلمي رائع، فلا مشكلة في قدرة الله تعالى.

إذن لا توجد محرَّمات فكرية لا يسمح الخوض فيها، بل توجد محرَّمات عملية بمعنى لا يجوز لك أن تنفي أو تقف شاكّاً بل عليك الإيمان بما جاء من عند الله... فإذا تحدَّث الوحي عن الصراط والحساب يوم القيامة وغير ذلك من عالم، بعد الدنيا فلا يجوز لنا الجحود لمجرَّد أنَّ هذه المعلومات لم نكتشفها بقدراتنا الفكرية.

الثالثة: ما هو موقع العقيدة في شخصية الإنسان؟

ماذا تمثّل العقيدة في كيان الإنسان؟

الحداثة تقول: العقيدة لا تمثّل ركناً في شخصية الإنسان. أمَّا الإسلام فيقول: العقيدة تمثّل ركناً في شخصية الإنسان.

الناس يتميَّزون: غني وفقير، أبيض وأسود، آسيوي وأفريقي، عربي وأعجمي، لكن باعتقاد الجميع أنَّ هذه الفوارق لا تجعل الهوية بين الناس متميّزة، هل هوية الغني غير هوية الفقير؟ هل شخصية الآسيوي غير شخصية الأفريقي؟ طبعاً لا. وهذه القضايا قضايا طارئة لا اللون ولا اللغة، ولا الجغرافية، ولا الموقع الجغرافي... الزمان، المكان...

---

(١) راجع: التوحيد/ الصدوق: ١٣٠/ ح ٩ - ١١.

هـذه ليـست ركنـاً فـي شخـصية الإنـسان... الحداثـة تقـول هكـذا العقيـدة أيـضاً، وهـي أن يكـون أحـدٌ كـافراً بكـلّ شـيء وآخـر يعبـد الـصنم وآخـر يعبـد النـار وآخـر يعبـد الله وآخـر يـؤمن بإلـه الـشرّ، وإلـه الخيـر، إلـه العظمـة، إلـه النـور، كـلّ هـذه القـضايا لا تمثّـل ركنـاً فـي شخـصية الإنـسان... تعامـل مـع الناس كلّهم على أساس إنسانيتهم وليس على أساس عقيدتهم.

هـذا مـسلم، أو كـافر، مـسيحي أو غيـره، كمـا تـدخل أنـت مـثلاً شـريكاً في العمل أو في الدراسة وتختار الشريك بحسب الكفاءة.

الحداثـة تقـول: إنَّ العقيـدة لا تمثّـل ركنـاً مقوّمـاً لشخـصية الإنـسان، وإنَّمـا هـي قـضيّة طارئـة متحرّكـة وهامـشية، كمـا هـي قـضيّة اللـون والمكـان واللغة والمال والمهنة، والفن والذوق والأدب كلّها هامشية.

أمَّـا الإسـلام فإنَّـه يقـول: العقيـدة عنـصر فاعـل فـي شخـصية الإنـسان وهـي ليـست حالـة طارئـة وهامـشية، لأنَّ الفكـر أسـاس مـن أُسـس تقيـيم الإنـسان، كمـا نقـيم الإنـسان علـى أسـاس مواقفـه الأخلاقيـة الـسلوكية، كـذلك نقـيم الإنـسان علـى أسـاس مواقفـه الفكريـة، ونقـصد بـذلك أنَّ العقيـدة أسـاس يجـب أن يُعتمـد فـي التقيـيم. الحداثـة تقـول: الأسـاس العقيـدي لـيس لـه أيّـة قيمـة موضـوعية فـي تقيـيم الأشـخاص: الكـافر والمؤمن، في التعامل والتقييم والفوز والخسارة سواء.

الإسلام يقول: العقيدة أساس من أُسس التقييم، والأساس الثاني هو العمل بين صالح وغير صالح، وبين عمل خير وعمل شرّ، هذا هو المقياس، والبشرية اليوم كلّها تؤمن بهذا المقياس وأنَّ هذا مواطن صالح وهذا مواطن غير صالح، وهذا الموظَّف نزيه وهذا غير نزيه... والإسلام يؤكّد هذا الأمر، وهو العمل الصالح في مقابل العمل غير الصالح... ويقول الإسلام: أنا أُعطيكم مقياساً آخر

ليس فقط العمل الصالح بل هناك مقياس آخر معه هو مقياس الموقف الفكري وهو الذي نقيّم به الإنسان، وعلى ضوئه نقيّم حكمه في الدنيا ونقيّم مساره في الآخرة... العمل شيء مهمّ جدّاً في النجاح لكن بالإضافة إلى ذلك هناك العقيدة والقرآن يقول: [وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ] (١)، ويقول: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] (٢) إذن فقد صار لدينا مقياسان، [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ] (٣) مقياس العقيدة ومقياس العمل الصالح. القرآن الكريم يقول: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (٤).

ويقول: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (٥).

ويقول: [وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] (٦) يعني: الإيمان مقياس في التقييم، بمعنى أنَّ الإيمان والعقيدة تمثّل ركناً في الشخصية.

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) البقرة: ٢٧٧؛ وآيات أخرى كثيرة غيرها.

(٣) البينة: ٧.

(٤) الحجرات: ١٠.

(٥) التوبة: ٧١.

(٦) البقرة: ٢٢١.

فيوجد امتحانان: نظري وعملي، كما تدرسون الآن في العلوم، ففيها درس نظري وآخر تطبيقي عملي.

نعم... العمل التطبيقي هو أساس النجاح أيضاً. ولكن الإسلام يرى وجود بُعدين في شخصية الإنسان: بُعد نظري وبُعد تطبيقي، ففي البعد التطبيقي يوجد عمل صالح وعمل غير صالح.

وفي البعد النظري يوجد الإيمان والكفر، الإيمان بالله تعالى وهو الحقيقة الوجودية الكبرى.

الإنسان يجب أن يخضع للحقيقة الكبرى، تلك الحقيقة الكبرى سوف تحاسبك، ولكن يجب عليك أن تخضع مثلاً إلى استحقاقات البيئة، والصحَّة وعدم أكل الطعام الملوَّث وعدم استنشاق الهواء الملوَّث، هذه استحقاقات طبيعية لأنَّك جزء من هذا الوجود هكذا قضيّة الإيمان بالله تعالى فأنت مخلوق، والله قد خلقك، وهذه القضيّة لها استحقاقها فإذا كفرت بها تكون كما لو كفرت بالبحر أمامك وألقيت نفسك فيه وأنت لا تعرف السباحة، أنت كما جاء في القرآن: [قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّه](١). والذي لا يؤمن بإلهه سوف يعاقبه الله... هذا هو موضع افتراق المسار بين الحداثة والإسلام... حيث إنَّ الإسلام يرى أنَّ الله هو ربّكم الأعلى، ويقول: أيّها الإنسان أنت عبد ويجب أن تعطي استحقاقات العبودية وإذا لم تعطها فسوف تصطدم بالواقع المأساوي [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ](٢) هذه هي الفكرة الدينية عن موقع العقيدة في شخصية الإنسان.

* * *

---

(١) مريم: ٣٠.

(2) ق: ٢٤.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

أصول الفلسفة والمنهج الواقعي: السيّد محمّد حسين الطباطبائي/ تقديم وتعليق الشيخ الشهيد مرتضى مطهري/ المؤسسة العراقية للنشر والتوزيع.

أصول الكافي: الكليني/ دار الكتب الإسلاميّة/ طهران/ إيران/ ط٤/ شتاء ١٣٦٥.

أعيان الشيعة: محسن الأمين/ ت حسن الأمين/ دار التعارف/ بيروت.

الأسس المنطقية للاستقراء: السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر/ مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر/ قم/ إيران/ ط١/ ١٤٢٤هـ.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكارم الشيرازي.

الإنسان في الفلسفة دراسة تحليلية: عبد الله الخطيب/ دار الشؤون الثقافية العامّة (آفاق عربية)/ بغداد/ العراق/ ط١/ ٢٠٠٢م.

التفسير الصافي: الفيض الكاشاني.

التنظير المنهجي عند السيّد محمّد تقي الحكيم: د. عبد الأمير كاظم زاهد أستاذ الإسلاميّات جامعة الكوفة كلية الآداب العراق/ المؤسسة الدولية للدراسات والنشر.

التوحيد: الشيخ الصدوق/ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم.

الثاقب في المناقب: ابن حمزة الطوسي/ مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر/ قم/ إيران/ ط٢/ ١٤١٢هـ.

الحداثة وما بعد الحداثة: د. محمّد سبيلا/ مركز دراسات فلسفة الدين/ بغداد/ ٢٠٠٥م.

الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد: د. محمّد آركون/ ترجمة هاشم صالح.
المجتمع والتاريخ: الشهيد الشيخ مرتضى المطهري/ منشورات دار الزهراء/ النجف الأشرف/ العراق/ ١٤٢٧هـ.
المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون/ دار الدعوة/ اسطنبول/ تركيا.
المنطق: محمّد رضا المظفر/ منشورات الفيروز آبادي/ قم/ إيران/ ط٢/ ١٤٢٤هـ.
المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: محمّد تقي مصباح اليزدي/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدَّسة/ ط٦/ ١٤٢٥هـ.
بحار الأنوار: المجلسي/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ ط٣/ ١٤٠٣هـ.
بحار الأنوار: المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ بيروت/ ط٢ المصحّحة/ ١٤٠٣هـ.
تحف العقول: ابن شعبة الحراني/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم/ إيران/ ط٢/ ١٤٠٤هـ.
تفسير الثقلين: الشيخ الحويزي/ مؤسسة إسماعليان/ قم/ إيران/ ط٤/ ١٤١٢هـ.
ثواب الأعمال: الصدوق/ منشورات الرضي/ قم/ إيران/ ط٢/ ١٣٦٨هـ ش.
جامع السعادات: محمّد مهدي النراقي/ ط٤.
دفاعاً عن الحداثة: د. محمّد سبيلا.
روح الحداثة: طه عبد الرحمن.
سعد السعود: ابن طاووس/ منشورات الرضي/ قم/ إيران.
سير أعلام النبلاء: الذهبي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ لبنان/ ط٩/ ١٤١٣هـ.
صحيح البخاري: البخاري/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع/ بيروت/ لبنان.
عوالي اللئالي: ابن جمهور الأحسائي/ مط سيّد الشهداء/ قم/ إيران/ ط ١/ ١٩٨٥م.
عيون الحكم والمواعظ: الليثي الواسطي/ دار الحديث/ قم/ إيران.

فقه السُنّة: السيّد سابق/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ لبنان/ط ١/ ١٩٧١م.
فلسفتنا: محمّد باقر الصدر/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت/ لبنان/ ط٢ محقّقة ومصحَّحة/ ١٤١٩هـ.
قاموس المورد، معجم أعلام: منير البعلبكي/ ط دار العلم للملايين/ بيروت/ لبنان/ ٢٠٠٥م.
كنز الفوائد: أبو الفتح الكراجكي.
لسان العرب: ابن منظور/ نشر أدب الحوزة/ قم/ إيران/ محرَّم ١٤٠٥هـ.
نكن حداثيين أبداً: برينولاتور/ ترجمة أياس حسن وعدنان محمّد.
ما بعد الحداثة: د. باسم علي خريسان/ طباعة دار الفكر/ دمشق/ ٢٠٠٦م.
مخاضات الحداثة: د. محمّد سبيلا/ دار الهادي/ بيروت/ لبنان/ ط١/ ١٤٢٨هـ.
مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل/ دار صادر/ بيروت.
مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: محمّد بن طلحة الشافعي.
معجم ألفاظ الفقه الجعفري: د. أحمد فتح الله/ ط١/ ١٩٩٥م/ الدمام/ المملكة العربية السعودية.
معجم لغة الفقهاء (عربي _ انكليزي): ا. د. محمّد قلعجي، د. حامد صادق قتيبي/ دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع/ بيروت/ لبنان/ ط ١٩٨٥م، ط٢ ١٩٨٨.
معجم مصطلحات المنطق (عربي _ انكليزي _ فرنسي): السيّد جعفر الحسيني/ دار الاعتصام للطباعة والنشر/ ط١ التجريبية.
معرفة الإسلام: علي شريعتي/ دار الأمير للثقافة والعلوم/ بيروت/ ط١/ ١٤٢٤هـ.
مفتاح الوصول إلى علم الأصول: أحمد كاظم البهادلي/ ط ١/ ١٤١٥هـ/ بغداد.
مفردات أصول الفقه المقارن (معجم ثنائي اللغة عربي _ انكليزي): تحسين البدري/ المشرق للثقافة والنشر/ طهران/ إيران/ ط١/ ١٤٢٨هـ.

مناقب الإمام أمير المؤمنين C : محمّد بن سليمان الكوفي/ مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة/ قم/ إيران/ ط ١/ محرَّم الحرام ١٤١٢هـ.

موجز أصول الدين: السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر/ تحقيق ودراسة عبد الجبّار الرفاعي.

موسوعة الفلسفة: د. عبد الرحمن بدوي/ منشورات ذوي القربى/ قم/ إيران/ ط ١/ ١٤٢٧هـ.

ميزان الحكمة: محمّد الريشهري/ دار الحديث/ قم/ إيران/ ط ١.

نظرية المعرفة: السيّد حسن إبراهيميان/ مؤسسة أُمّ القرى للتحقيق والنشر/ بيروت/ لبنان/ ط ١/ ١٤٢٥هـ.

المعرفة في القرآن الكريم: الشيخ جوادي آملي/ دار الإسراء للتحقيق والنشر/ ط ٢/ ١٤٢٨هـ.

نظرية المعرفة، مدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات: محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر سبحاني بقلم الشيخ حسن محمّد مكّي العاملي/ مؤسسة الإمام الصادق C / قم/ إيران/ ١٤٢٤هـ.

نهج البلاغة: شرح الشيخ محمّد عبده/ دار المعرفة للطباعة والنشر/ بيروت/ لبنان.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *